عيون المعاصرة

الكومار الذهبي 2007

كمال الرياحي

المشرط

(من سيرة خديجة وأحزانها)

تقديم

صلاح الدين بوجاه

دار الجنوب للنشر - تونس

كمال الزّغباني

المشرط

(من سيرة خديجة وأحزانها)

تقديم

صلاح الدين بوجاه

دار الجنوب للنشر - تونس

© جميع الحقوق محفوظة لدار الجنوب للنشر – 2006
79 نهج فلسطين – 1002 تونس
الهاتف : 179 785 71 (216+) الفاكس : 664 848 71 (216+)
e-mail: sud.edition@planet.tn

ISSN 0330-5627 - ISBN 978-9973-844-60-6

لوحة الغلاف رسم للمؤلّف

B.HAMDAN
22/8/08

الإهـداء

إلى آمـال أبـداً

مـن يصـدّق هـذا الهـراء ؟!

ينبغي أن نشهد أنّنا إزاء نصّ آسر، قوامه شذَرات مستعارة من قديم المصنفات ومحدثها، لحمته تنويعات شتى... وسداه نصوص للكاتب -كمال الرياحي- ولغيره، وبنيته هدهدة بين الأزمنة والأمكنة، وشخوصه متعددة كثيرة متشابهة حينا متباعدة أحيانا! أما رموزه فتحيل على إمكانات بعيدة تكاد لا تُحصى !

صادمة هي رواية «المشرط» في مشرطها الذي تُعمله في ظهور النساء، وفي لغتها التي توظف المعاجم غير المهذبة. والمتمعن في نصها ينفذ بسرعة إلى التعالق بين بنيتين تتبادلان الظهور، فتطفو الأولى حينا وتطفو الثانية حينا آخر، لكن أثرهما الواضح في الشخصيات والوضعيات والأحداث يلبث بيّنا قويا حاضرا... إحداهما بنية بسيطة والأخرى معقدة. ينبع هذا وذلك من الذات الساردة حينا ومن تداخل المتون حينا... ومن صلة النص بالمرجع في أحايين متعددة أخرى !

والحق أننا إزاء أثرٍ لا يني يُحيل على المصنفات القديمة، لا بما يقول إنما بما يوحي به ويفضي إليه، وبالأحوال التي يُنشِئُ... فتحدثُ منها استيهامات كثيرة تُطوّح بالقارئ بعيدا، وتقتضي منه

أن يُبَدّل ذائقته في كل آن وحين! حتى لكأن متقبل هذه الرواية ينبغي له أن يعدد أدواته ويغير صيغ تعامله مع نصوص آيبة من كل صوب محيلة على مناخات متباعدة ومدارات متعددة... دون انقطاع عن واقع الناس في حلهم اليومي وترحالهم في أسواق حاضرة البلاد على هذا الوقت ! وفي غيرها من المدن والقرى والمداشر !

مُرتكزُ الثِّقل في هذه الرواية المتمرّدة ما شاع يوماً في بعض الحارات من إقبال أحدهم على إعمال المشرط في مؤخرات الصبايا... مبالغة في الفتنة والإعجاب، أو وقوعاً تحت طائلة الاستقباح الشنيع !

«من سيرة خديجة وأحزانها» عمل يُعالج الكثير من الهراء والفوضى، حتى كأنه -محاكاةً للتعبير الأثير عندي- مثل سوق شعبية في واحدة من قرانا الكثيرة... على سفوح جبال مكثر أو ريف القيروان أو... غير بعيد عن دارات برقو وضواحي كسرى في الوسط التونسي الفسيح ! من تلك الفوضى المدروسة جدا، أو قل من «اقتصاد الفوضى وتدبرها» ينشأ عمل رائق واضحُ الأرجاء. لهذا نقول إنه من السهل مع هذه الرواية أن نصرح أننا إزاء نص قد عمل على تجنب النقائص المفترضة التي يقع فيها من يُقبل على تدبّر هذا الفن الصعب !

عبر أدوات... من قبيل الفقرات ذات الحروف الغليظة، أو الفراغات المُحدَثَة قصدا، أو الرسوم المستعارة من الفن العالمي، أو السطور المستقيمة الكاملة، أو النجوم الفاصلة، أو العناوين الصريحة... يمضي النص معلنا عن توتراته، كاشفا خباياه

وتدافع أجزائه وقلقها وعدم ركونها إلى الدعة والسلم والاطمئنان !

هذا هو الانطباع الأول الذي يظفر به الخائض في أحداث هذه الرواية : نصوص متنافرة، وفقرات متدافعة، ووحدات قائمة فوق خواء من التتالي الخاضع لمبدأ «الضم» و«التداعي» ... وعفو الخاطر والصدفة !

ولا نشك في أن النظر في هذه الفصول سرعان ما يوقفنا على السمة الغالبة على البنية، فالوحدات «تتتالى» بقدر ما تخضع لمنطق آخر عكسي يمكن أن نلقبه مبدئيا «بمنطق التعاكس» ! فالفصل لا يدعو الفصل إنما يُفضي إلى فصول أخرى بعيدة !

إذا سلمنا بنجاح الكاتب في هذا، أو في إيهام قارئه بهذا، سلمنا بنجاح هذا البناء في إحداث حال من الفوضى المرغوب فيها... التي لا تعدو أن تكون فوضى حياتنا، وحياة أمثالنا من أهل هذا الزمان... في بلادنا وغيرها من أرض الله الواسعة !

واقعية تصدم الذائقة، وتناولٌ فجٌّ لأحداث الحياة اليومية يرنُو إلى إحداث صدمة قاسية، وتخييب الانتظار.

نتلقط هذه السمة، ونلح عليها، لأنها هنا تمثل القانون الكبير الذي تسير على هديه رواية «المشرط»، أو قل إنها تسير على «لا هديه !» إذا صح النحت! فهو من قبيل الضرب في صحراء التيه والفوضى حتى منتهاها! والرواية تريد اقتناعنا بهذا في لفظها، ومعناها، ضمن هذا السياق نضع كلامها النابي، ورغبتها في التعامل مع المستقبح من الأفعال والألفاظ..!

هذا الشطط النابع من الرؤية المتحكمة في الرواية هو ذاته الذي نلاحظه في الشخصيات، كل الشخصيات. وإنها لكثيرة ذات أنواع وأقسام شتى ووظائف مختلفة، بل لعلها متناقضة أيضا! ذلك أن الوقوف على مبدأ التناقض والتنابذ لملمة لكل المستويات في هذه الرواية.

ينبع ذلك من شخوص الرواية... فمنها التاريخي، ومنها النصي الذي يعيدنا إلى عالم الرسم، ومنها الأدبي، ومنها الواقعي الذي لا شاهد على وجوده إلا الكاتب... فضلا على قرائن بعينها من واقع عاصمتنا ومقاهيها وحاناتها، وبعض الأماكن المخصوصة فيها.

من الشخصيات... المخاخ، والغرّافة، والرجل المحموم، والضرس، والزوجة، والنيقرو وبولحية، والسلطان شورّب، وهندة، وسليم النادل، وسيدة الروتند، والروتاند، وشارع بورقيبة، وابن الحجاج، والشهلاء الحمراء... بيد أن أبرزها -سردا ودلالات- شخصية «النسناس» الذي لبث كائنا أسطوريا/واقعيا مشطورا - مثل جسده- بين النص والمرجع... أو قل بين النصوص والمراجع... على تعددها واختلافها!

ويبدو أن ذِكْرَ النسناس» هذا قد ورد في مصنفات كثيرة قديمة منها رحلة الغرناطي، وأخبار الزمان ومن أبادهُ الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران للمسعودي. ومعجم البلدان لياقوت الحموي والحيوان للجاحظ... فضلا على لسان العرب لابن منظور الإفريقي (جذر نسس). هذا الكائن المجزوء منشطر بين الواقع والوهم والحيوان

والإنسان والنص والواقع... يختزل رموزا مهمة تأخذ بجماع السرد والدلالة في هذا العمل الآسر الراغب في تنبيه القارئ من غفلته !

يحدثُ ذلك بالكلام النابِي حينا، والمسترذل من الأفعال حينا آخر... يقربُ الشخصيات من بعضها البعض ويُثير الأزمات بين شخصيات أخرى...

ونــدرك تمام الإدراك أن هــؤلاء، وغيرهــم، يســهــمــون بنصوصهم ولوحاتهم في إغناء المعنى وتنويع الدلالة... إنما رغبنا هنــا أن نــلــمح إلى أن كمـال الـريـاحـي قد عمل عبر استدراج استراتيجيا روائية فريدة... فجعلها تتفشى في الرواية وتُنشِئ وهم إسهام جميع الشخوص الواقعية والمتخيلة، المرجعية والنصية، في الأحداث... وبالتالي في المعاني.

سُئل البشير خريف عن «آبائه» فصرح: هم الرزقي والدوعاجي. وفي حسباني انه يسهل على «المشرط» أن يبحث له عن سند خالص في أعمال كل من الرزقي والدّوعاجي والمسعدي وخريف والمدني وحسن نصر وبوجاه والدرغوثي... فيسهم بهذه الكيفية في إعادة ترتيبهم ضمن سياق الرواية التونسية، ويسهم بالتالي في إعادة ترتيب هذا السياق الروائي العام ضمن ضروراته التاريخية.

وحري بنا، بعيدا عن الناظرين بعين واحدة، أن نقف على تقاطعات شتى بين مدونات متباعدة في الظاهر لكنها في جوهرها تنهل من المعين ذاته... غزيرا كان أو ضنينا شحيحا. لهذا نلاحظ

هنا أن هذه الرواية ضرورية اليوم، لدى مفتتح الألف الثالثة للميلاد، لإعادة تمثل روايات كثيرة ظهرت تباعا منذ ثلاثينات القرن العشرين حتى طور التسعينات، وألقت السؤال الحارق ذاته: من ترى يصدق هذا الهرَاء !؟

... لكن أهو هراء !؟...

صلاح الدين بوجاه

نصفه نجوم
و نصفه الآخر بغايا و أشجار عاريه
ذلك الشارع المنكفئ على نفسه كخيط من وحل

محمد الماغوط

كل شيء في هذا العالم ينضح بالجريمة :
الجريدة و الجدار ووجه الإنسان

شارل بودلير

لا تنس ...أن تذهب حتى نهاية أسطورتك الشخصية

باولو كويلهو

الحقيقة

العـــدد 2006

نظرا إلى أن القضيّة أصبحت قضيّة رأي عام، و لأن الدوائر المسؤولة فشلت في العثور على الجاني و لم تعثر على المفقودين، قررنا أن نخرج ما عندنا من معلومات لعل ذلك يميط اللثام عن بعض الأمور الملتبسة و يجيب عن بعض أسئلة القرّاء، خاصة أن المعني بالأمر كان قد كلّف بمتابعة القضية و محاورة المختصّين في تحليل الجريمة، و بعد اختفائه المفاجئ كان من واجبنا التحقيق في القضيّة بطرقنا الخاصّة.

تتداول الألسن أنه كان يجوب شوارع المدينة بعد أن ترك مكتبنا حين حدث الذي حدث ولم يعد أهلها يرونه بعد ذلك، فرجّحوا أنه فُقد مع من فُقد في تلك الليلة وأنّه لا شكّ عالق في إحدى شباك الأودية. وعندما لم يعثر على صديقه الأسمر الغريب الذي لا يعلم أحد اسمه قرّر بعض محبّيه اقتحام الشقة التي رأوه يتردد عليها الشهور الأخيرة بقلب العاصمة. عندما كسروا الباب الخشبي واقتحموا الغرفة المُتربة لم يعثروا إلا على حزمة من الأقلام الجافة وفتات خبز أخضر ودفترين بخطّين مختلفين و لم يهتد أحد إلى تمييز خطّه من الخط الآخر، لذلك قررنا نشر ما جاء في الدفترين مذكّرين بالعبارة الشهيرة «المواد المنشورة هنا لا تلزم إلاّ أصحابها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي هذا المنبر».

الجزء الأول

1

في ذكر الخرّوبة المبروكة التي سكنها الهدهد

كنت أراها في ليالي الصيف المقمرة تطل من خلف الحوش سوداء، ضخمة، عظيمة كالآلهة، أبي كان يقول إنّها تحرس هذا البيت من الفناء... ظلّ يومها مكتئبا يربّي تجعيدة جديدة في جبينه المخطّط مردّداً : اللّهم ارحمنا و لا تجعلنا من الملاعين، اللّهم ارفق بحالي وحال أبنائي المساكين، اللّهم لا تأخذنا بما فعله السّفهاء منّا... رحمتك يا أرحم الرّاحمين...

– لا تجزع هكذا يا رجل أمّنا غفورة وبنا رحيمة (قالت أمّي)

– لكنّ الذي حدث مخيف

– قد يتركها و يرحل.

– لا أعتقد، لقد عشّش فيها، وأفشى نتانته.

– نتانته هي التي تقلقني.

– ما رأيك لو أحرقناه ؟

– سنحرقها معه ولن تغفر لنا صنيعنا.

– لا أخاله يرحل، إنّه أكثر عناداً من الصخر.

– رأسه يحمل تاجا كتيجان السلاطين.

– .....

– انظر إنّه، مع ذلك، جميل !

– .....

– رائحته الكريهة لا تقاوم !!!

– .....

* * *

كانت أمي تطلي الخروبة العظيمة بالحنّاء متمتمة بكلام غير مفهوم... كلام كالطلاسم... تسمّيها منذ زمن أمّنا الكبيرة. كنت أسخر منها ومن أفكارها، وكانت تنهرني ولا تتردّد في رميي بالحجارة مهدّدة «سأطلي لك عينيك بالفلفل الأحمر إن عدت إلى ثرثرتك يا ابن ال...».

كثيرا ما كنت أختلي بنفسي لأسألها : هل فعلا تنحدر عائلتي من هذه الشجرة العملاقة ؟ كيف أنجبتنا ؟ هل حملتنا شهورا تسعة كما فعلت أمي عندما أنجبت أخي الأصغر ؟!!

زارتني البارحة في المنام ...

أبي لا يملّ قص أحلامه و رؤاه

«كانت شابة جميلة ترفل في الحرير تضع على رأسها منديلا أخضر، قدّمت لي مصباحا مضيئا و قالت لي : اتهنّى، جاءك الفرج..»

كنت أجالسها في النّهار، وأناديها جدّتي، طمعت يوما في قرن خرّوب ظلّ معلّقا في قمّتها، رميته بالحجارة أروم إسقاطه لكن الحصاة التي أرميها كانت تضلّ طريقها.. الحصاة تلو الحصاة... يومها فتحت سحّابة سروالي وفعلتها على

جذعها.. عندما سحبت السحّابة لأغلقها علقت بجلدتي الطرية وأرتني ويلات الألم. عدت بعد ساعات الرّجم خائبا، باكيا.

* * *

في ليلة شتويّة، كنّا نسهر على وقع المطر وزفير الريح القادمة من أتون الجحيم، كنت أتسلّى بمتابعة ثعبان البيت الذي يرقد في أعلى السّقف بين الأغصان، التوى مع «القنطاس» وظلّ يراقبنا، فزعت، أأأأأبيييييييي.. الثعبان !!

– اتركه إنّه بركة البيت، إنّه يحرسنا من المصائب ...

– لكنّه لم يظهر بهذا الشكل من قبل !

– قلت اصمت، لا تفزعه. الثعبان لا يؤذي إلاّ من يؤذيه وثعباننا أليف يقاسمنا هذا البيت قبل أن تخلق أنت !

تساءلت يومها : لماذا نرضى بهذه الحياة ؟!! بأيّ وجه حق يقاسمنا هذا الغريب بيتنا بكلّ هذه الوقاحة ؟!!

كان يتجوّل بين أعمدة السّقف كأنّما هو المالك و نحن الضيوف الثقلاء ...يداعب بلسانه المسموم سعفة النخيل اليابسة، ثمّ ينطلق يحاكي بصفيره الريح التي تهز الصدور...

في تلك الليلة، ومع صوت الصّاعقة، سقط الثعبان على الأرض... نهض أبي حزينا... فتح الباب في صمت و أمرنا بالخروج... ظلّ الثعبان في البيت و قضينا ليلتنا الماطرة في إسطبل البهائم نحلم بدفء البيت الذي كان لنا...

في الصباح سألنا أبي : ماذا نصنع ؟

– يبقى الأمر على ما هو عليه .

– ماذا تعني ؟ قالت أمي متعجّبة
– اتركوا البيت للثعبان... إنّه بلا شكّ ولي صالح ..
– أيّ ولي هذا الذي يستولي على بيت فقراء مثلنا ؟
– لنا الإسطبل... كفى يا امرأة .
– وأثاثنا و طعامنا ؟!!
– لم يعد أثاثنا و لا عاد الطعام طعامنا .كلّ ما في البيت أصبح له
– ولكن هذا ظلم .
– لا تعيدي هذا مرّة أخرى... هذه مشيئة أمّنا الكبيرة وقد زارتني في المنام...
– تبّا لهذه الخرّوبة العجوز التي أهلكتنا وتبّا لمناماتك المظلمة...
– كفى يا امرأة ستحل بنا لعنتها، إنّها أمّنا الكبيرة.
– أي أمّ هذه التي تطردنا من فراشنا لينام فيه ثعبان أجرب... لن أترك بيتي...

حملت الرفش وركضت نحو البيت المحتلّ... أردت أن أروي لها حكاية السحابة التي أذاقتني من الألم ألوانا... لكنّها كانت تركض صارخة وأبي وراءها يريد منعها... لم يدركها إلاّ وهي تنهال على الثعبان الأسود بالرفش...

كنت أراقبهما من بعيد وهما يتناقشان ويتصايحان في قلب البيت أمام جثّة الثعبان... كنت أراقب... أقسم لكم إني كنت هناك أشاهد ما يحدث عندما سقطت شجرة الخرّوب على البيت... انهار بيت الطين على من بداخله واندلعت عاصفة من غبار سرعان ما تبخّرت لتبقى شجرة الخرّوب العظيمة ممدّدة على ركام الحجر وأغصان السقف المنهار.

عندما وصل الأهالي... بحثوا عن الجثّتين فلم يعثروا إلا على هدهد وصغاره تطايروا في كل الاتجاهات ليعلقوا بأشجار الزيتون، بينما سُحب أحد الباحثين جثّة زرقاء.

منذ ذلك اليوم سكن الخراب المكان وحلّت جنائز الملسوعين.

2
في ذكر المخّاخ

تململ رجل الرصاص، رمى بالكتاب الثقيل من بين يديه، اقتلع قدميه من قاعدة الإسمنت، جلس بجانبي ونزع عنه برنسه ووضعه على كتفيّ، نظر إلى الساعة الشاهقة المنتصبة في آخر الشارع تلسع عقاربها قلوب المنسيين، يبدو أن شارع الشوارع هُجر هذه الليلة باكرا، طريق باردة من مجلسنا باتّجاه ساعة كالقيامة. مسح العلاّمة على لحيته وقال : سأروي لك الليلة حكايتي، حكاية أغرب مما قرأت من أمري في رحلتي مشرقا ومغربا وأمتع من كل ما قرأته في مقدّمتي وتاريخي وأكذب من كل ما رواه سعد الدمشقي في منمنماته وما حبّره سالم المغربي في روايته التي أثقلها بسيرتي المزوّرة.

سكت ابن خلدون، امتدّت يده نحو علبة سجائري، أخذ واحدة، أشعلها، سحب نفساً، ثم أطلق دخانه إلى الطريق الخالية. تابع ممزّق الغيمة التي ضاعت في ظلمة الليل واستأنف : مثل هذه الغيمة، تهت يوما في مجاهل الشمال، بعد أن «أقسمت بمن حجّت قريش لبيته» ألاّ أقيم يوما آخر في هذا الشارع. مزّقت الدفتر وركضت نحو «محطة برشلونة» تسلّلت إلى إحدى

العربات متخفيا ببرنسي. دخلت دورة المياه وأقفلت على نفسي هناك حتى لا يُكتشف أمري... مرّ وقت طويل قبل أن ينطلق القطار نحو المجهول لم أكن أعلم إلى أين يسير، كنت أرغب في ترك الشارع فقط، كان ذلك كل همّي.

قضيت ساعات أستمع إلى همهمات المسافرين وضحكاتهم وعراكهم، أحيانا كان أحدهم يطرق باب المرحاض بعنف ثم ينسحب عندما ييأس من فتحه كان القطار يعبر نفقا في جبل عندما فتح عليّ مراقب التذاكر الباب، فصرخ من الدهشة وأغمي عليه، هرع نحونا المسافرون، ارتميت في تلك اللحظة خارج القطار الذي كان قد خفّف من سرعته في أحد المنعرجات و لم أعد أذكر شيئا غير ارتطام رأسي بجانب النفق المظلم.

أفقت صباحا فوجدتني قد وقعت في أُمّة تتكلّم عربية غريبة، أمّة برؤوس طويلة وأجسام عظيمة يكسوها شعر مثل وبر الإبل، يُعلّق الرّجل منهم قرطا من الخشب في أذنه اليسرى، يلبسون البرانيس والقشاشيب الرماديّة المخططة، يمشون محرّكين مؤخراتهم بشكل غريب [عرفت بعد ذلك أنّهم جميعا مصابون بداء الزهري] يأكلون الأعشاب ولا يقربون لحوم الخرفان إلاّ في يوم واحد من أيام السنة يسمّونه «عيد الغرّافة». أمّا لحوم البقر والطيور فهي محرّمة عندهم، ولا يعرفون الأسماك وكل لحوم البحر، وكلمة بحر عندهم لها دلالة أخرى مستهجنة، وقد سمعت أحدهم يشتم غريمه قائلا : يا بحر، وعندما سألت عن المعنى أفادوني بأنّها شتيمة تعني اللوطي. فسألت مستغربا عن

وجه الشبه فقالوا : البحر ربّ اللوطيين وزعيم المخنّثين يركبه الغرباء فلا يبدي اعتراضا، كذلك اللوطي من البشر يركبه الغرباء ويلجه السوقة والأعيان، والرجال والغلمان.

لم أقتنع بتلك التفسيرات، لكنّي لزمت الصمت كأنني اكتفيت، لأنّ عاداتهم ومعتقداتهم مقدّسة لا يتركون غريبا يناقشها، أردت يوما أن أستفسر عن علّة ذلك الاسم الذي تحمله تلك الأمّة التي تسكن الشعاب فهمست في أذن أحدهم :
– لماذا تسمّون بالمنافيخ ؟!!

حدجني بنظرة مريبة وتبدّل لونه وارتعشت عضلات وجهه غضبا وقال :
– إن عدت إلى هذا السؤال ستلقى مصير ذلك الغريب، وأشار بيده إلى موقع قريب فيه أشجار عملاقة ملساء الجذوع، قليلة الأوراق تبدو كالأشباح في ذلك المساء.

أخذني الفضول إلى ذلك المكان وعندما أشرفت عليه خنقتني رائحة نتنة كريهة كرائحة الجيفة، احتميت منها بطرف برنسي وتقدّمت، كانت بقيّة جثّة آدمي مشدودة في السماء من أطرافها الأربع بحبال إلى شجرتين، أحشاؤها تتدلّى إلى الأرض تنقرها طيور غريبة لم أتعرّف منها إلاّ على الغربان، كان بعضها أبيض وبعضها رماديا ولبعضها مناقير كالمناشير وكانت تطلق أصواتا مرعبة وهي تلوك أحشاء الرجل المسكين.

وفي تلك الأثناء حطّ طير ضخم كالنسر وليس بنسر، رأسه طويل مثل رأس البغل أو الحمار، له فم بشفاه غليظة،

فتعجّبت من ذلك الطير الذي لا يشبه الطيور. أخذ ذلك الشيء الغريب يدخل لسانه في رأس الرجل المصلوب ليلحس مخّه بعد أن ثبّت قائمتيه على كتفي الجثّة، ففررت فزعا.

عندما وصلت إلى الدليل الذي بقي ينتظرني بعيدا كان الرعب قد سرق منّي كلّ دمائي، و لم تعد ركبتاي قادرتين على حملي، ابتسم قائلا :

– لا تخف فذلك مصير من يريد هتك أسرارنا.

قلت : ليس ذلك ما أفزعني.

– ماذا إذن ؟؟

– الطير.

– أيّ طير ؟

– الطير البغل.

– هل رأيته ؟

– أجل ما تلك الآفة ؟!!

– هيّا بنا حتّى لا نكون فريسته هذا المساء.

– لم تجبني، ما ذاك الشيء ؟! أهو من أسراركم أيضا ؟!

– سأحدّثك عنه عندما نقترب من القرية، هيا أسرع.

* * *

عندما ابتعدنا كثيرا عن الجثّة المصلوبة، خفّف الرجل من هرولته، والتفت إليّ وهو يقطر عرقا وقال : إنّه المخّاخ، لا يأكل

إلا المخّ ولا يقرب غيره، لقد أهلك الألوف من أطفالنا، كل يوم نعثر على العشرات من جثثهم مسلوبة الرؤوس، هو يحبّ أدمغة الأطفال ربّما لأنها طريّة ونقيّة أمّا أصل حكايته فأمر عجيب قد يرويه لك غيري.

عند الغداء جاؤوني بأعشاب وعروق شجر وأنواع من البصل كريه الرائحة بعضها نيئ وبعضها مسلوق في مرق أصفر، ذقته فلم أستسغه كأنما هو مسلوق في ماء دون ملح، التفتُّ إلى أحدهم وقلت :

– هل لي ببعض الملح ؟

فبانت عليه دهشة ورفع حاجبه في تساؤل، فأعدت السؤال :

– أريد ملحا !

فقال : وما الملح ؟

صعقت، لقد وقعت في أمّة لا تعرف الملح. التفتّ إلى ذلك البصل الكريه، قضمت منه فوجدته طيبا فاستزدت منه حتى اكتفيت وكان الجوع قد أخذ مني مأخذا، بعد أن انتهينا من الغداء جاؤوا لنا بأباريق حسبتها شايا سكبوا لنا في كؤوس من الخشب سائلا أبيض خاثرا كالحليب، شربته ففعل بي فعل الخمرة.

حدّثني أحدهم أنهم كانوا في زمن بعيد يصيدون النسناس الذي كانت مجموعات كبيرة منه تعيش في تلك الشعاب، كانت

قد حملته إليهم ريح قويّة جاءت من بلادٍ بعيدة وهم إلى اليوم يؤرّخون بها فيقولون : حدث ذلك سنة ريح النسناس وكان ذلك في عام النسناس.

هل سمعت بالنسنآس ؟

يقال إنّه «عند صنعاء أمّة من العرب قد مُسخوا، كل إنسان منهم نصف إنسان له نصف رأس، ونصف بدن، ويد واحدة، ورجل واحدة، يقال لهم وبار، هم من ولد ارم بن سام أخو عاد وثمود، وليس لهم عقول. يعيشون في الآجام (و) في بلاد الشجر على شاطئ بحر الهند، والعرب تسمّيهم النسناس، ويصطادونهم ويأكلونهم. وهم يتكلمون بالعربية (ويتناسلون) ويسمّون بأسامي العرب ويقولون الأشعار».

وقرأت في الكتب القديمة «من العجائب خلق النسناس وهو كمثل نصف الإنسان يد واحدة ورجل واحدة، ويثب وثبا ويعدو عدوا شديدا، وكان ببلاد اليمن، وربّما كان ببلاد العجم، والعرب تصيده وتأكله. وفي بعض أخبارهم أن سيارة وقعوا في أرض كثيرة النسناس، فصادوا واحدا وذبحوه وطبخوه وكان سمينا، فلما جلسوا يأكلونه قال أحدهم : لقد كان هذا النسناس سمينا، فقال نسناس آخر، قد اختفى في شجرة بالقرب منهم : إنه يأكل السرو فلذلك سمن، فنبّههم على نفسه فأخذوه وذبحوه. فقال آخر من شجرة أخرى، قد اختفى فيها عنهم : لو كان عاقلا صمت ولم ينطق، فأخذوه وذبحوه، فناداهم نسناس آخر تخبأ في

بعض خروق الأرض : إني قد أحسنت فلم أتكلّم فأخذوه وذبحوه، وكان لهم فيها قوت، فقيل إنه يتغذى بالثمار والنبات، ويصبر على العطش».

وفي تلك الربوع ينبت شجر يسمّى «البطّوم» ربّما هو الذي سكنه النسناس، وهو شجر عظيم بأوراق صغيرة وكثيرة يطرح ثمرا صغيرا كعناقيد العنب يسمّونه «قذوم الجنّ»، بعضها أخضر وبعضها بنفسجي وآخر أسود وهو ألذّها، يلتهمه الرجال في الليالي الباردة ثم يأتون نساءهم بشوق عجيب، فلا ينزل الواحد منهم عن زوجه إلاّ مع طلوع الشمس. وكان بعض التجّار اليهود يحتكرونه بعد أن اشتروا كل شجره، وكانوا يخلطونه مع أنواع أخرى من الأعشاب فيستحيل أُكلة مُسكرة تذهب العقل وتقوّي الجماع وتهيّج الشهوة فإذا بآكلها يركب كل من يعترضه، لذلك كان الرجل لا يأكل منه إلاّ في بيته وبعد أن يحكم غلق الأبواب حتى لا يخرج، ويسلّم مفاتيح الباب لزوجه.

وحدّثوني عن راع قايض التاجر حفنة من القذوم المخلوط بخروف سمين وفي طريق عودته لأهله قضم من قطعة القذوم المعطّرة فاشتدّت به الرغبة في الجماع وألهبته الشهوة فنزل عن بغلته وأولج فيها وبقي يركبها وهي ترفسه بحوافرها حتّى وجده الناس صباحا ميّتا وهو يحضنها من الخلف. ولكن أغرب ما سمعته أن تلك البغلة حملت منه شهورا تسعة، وجاءها يوما المخاض فاجتمع كل سكان الشعاب والشعاب المجاورة وبعد ساعات من الآلام والنهيق الغريب طرحت البغلة مولودا عجيبا

وجهه بغل وقوائمه مثل رجلي الإنسان نبتت له أربعة أجنحة وطار أمام الأهالي وحلّق في السماء مطلقا صراخا كصراخ الرضّع.

تذكّرت وأنا أستمع إلى الحكاية بغلتي التي سلبنيها «تيمور لنك» في الشام وما قرأته منذ سنين في كتاب لم أعد أذكره ولا أذكر صاحبه من أنّ «**النمرود جبّار زمانه، قد طغى وبغى، حتى أنه حاول أن يتطاول على العزّة الإلهية، وعندما أراد أن يحرق سيدنا إبراهيم، دعا إليه البهائم وطلب إليها أن تأتيه بالحطب، فاعتذرت جميعها، كي لا تُسخط من الله، في حين أن البغلة استجابت لطلب النمرود وأمدّته بالحطب اللازم. فغضب سيدنا إبراهيم على البغلة ودعا عليها أن تبقى محرومة من (لذة النساء)، وتكون عقيمة دون سائر الحيوان، وأن لا تكون لها كنية أو حسب أو نسب، وأن تكون حمّالة الحطب مدى الحياة**».

* * *

روى أحدهم للأهالي أنّه شاهد البغلة العجيبة ترضع شيئا في الظلام وعندما اقترب منها، طار ذلك الشيء الضخم في السماء. حمل الرجال فؤوسهم وسيوفهم واندفعوا نحو البغلة التي لم تبرح مكانها مذ جاءها المخاض في ساحة القرية. كانت الساحة مكانا لممارسة الشعائر – هكذا قالوا – وجدوا وَبَرَهَا بدأ ينسل وينبت في مكانه ريش خشن فازدادوا خوفا من أن تتحوّل البغلة إلى وحش يهلكهم جميعا، أحاطوها بالحطب

اليابس وأغصان البطّوم والتبن وأضرموا فيها النار فأكلها وصراخها اللهيب.

لم تمض مدّة طويلة على تلك الحادثة لتكتشف القرية أولى ضحايا المخّاخ.

* * *

أثناء أيامي الأولى بتلك الجبال اكتشفت أن كل النساء بها حوامل وعلمت من أحد الخدم أنّ المرأة لا تخرج من بيتها إلاّ متى حبلت وإلاّ نُعت زوجها بـ«البحر»، فإذا طال اختفاء الزوجة في البيت أكثر من ثلاثة أشهر فإنّ رجلا من القرية يدخل عليها فيحبلها ويصلب الزّوج للمخّاخ والجوارح الأخرى، أمّا المرأة العاقر أو التي اجتازت سنّ الخصوبة فمصيرها النار المنصوبة ببطحاء القرية. وسنّوا قانونا آخر يحرّم اللواط الذي كان منتشرا في أيام حاكمهم السابق قبل ظهور المخّاخ، كما اعتبروا الرجل الذي يأتي زوجته من دبرها، خارج اليوم العظيم، خائنا للأمّة ووجب قتله. كانوا بذلك يحافظون على نسلهم بعدما علموا بتكاثر طيور المخّاخ الذي كاد يبيدهم في زمن من الأزمان قبل أن يجتمع شيوخ القرية ويسنّوا هذه القوانين.

علمت ساعتها علّة إطلاق اسم «المنافيخ» على سكّان تلك الرّبوع، ذكروا لي بعد ذلك أن رجلا غريبا نزل بديارهم يوما، أقام بها مدّة وشاهد نساءهم الحوامل على طول العام، وعندما كان بصدد مغادرة المكان قطع عليه الطريق جماعة من

الصعاليك سلبوه أمواله وزاده وخلّعوه أثوابه وسألوه من أين جاء فأجاب : كنت بين «المنافيخ» وسرى الاسم كالنار في الهشيم حتى جاء به أحد تجّارهم العائدين من الشمال.

* * *

أقمتُ في تلك الشّعاب زهاء الشهر شاهدت خلاله عجائب وسمعت فيه غرائب ما ذكرتها لأحد قبلك لأنني أخشى أن ينعت حديثي بحديث خرافة أو أن أرمى بالتلفيق وخلق الأراجيف. كثيرا ما كنت أفيق صباحا فأحسب ما رأيته كوابيس وأضغاثا غير أنّي كنت أرى وأسمع في نهاري ما هو أعجب.

مازلت أذكر ذلك الصباح الذي فزعتُ فيه من نومي على أصوات وصراخ فهرعتُ إلى الخارج حافيا، فرأيت الناس يركضون نحو أطراف القرية فهرولت معهم ولست بعارف علّة ذلك الركض الجماعي، عندما شارفنا على بيت قصيّ اعترضنا رجال يجرّون امرأة عارية مجدولة الشعر، كانوا يقيّدونها بالحبال مثل جثّة متعفّنة ويركضون بها على الحصى والأشواك، فأدموا جسدها الأبيض البضّ حتى سُلخت مواضع منه، وكان صراخ المرأة يظهر ويختفي بين تلك الصيحات البدائية التي يطلقها الرجال المتوحّشون فتردّدها الجبال التي تأسر القرية من كل جانب فلا تغادرها.

مرّ المهرولون بجانبي، أمسكت ذراع أصغرهم، كان رجلا نحيلا يسعل سعالا شديدا وهو يلاحق المتظاهرين فقلت له : هلاّ أفهمتني ما يحدث ؟!

أجابني وهو يلهث ويسعل : الـمـ..خّـ..اخ لقد أنجبت مخّاخا.

ارتعدت فرائصي وأنا أذكر ذلك الطائر الخرافي البشع الذي كان يلحس مخّ الرجل المصلوب عند الشجرتين، لم أشف من ذلك المشهد منذ أسابيع وظلّ يطاردني في يقظتي ونومي، أردت أن أستفسر أكثر، لكن الرجل النحيل عاد إلى شأنه، كان سعاله يصلني متقطّعا وهو يركض في اتجاه الرجال الذين استقروا في بطحاء القرية.

انتبهت ساعتها إلى قدميّ الحافيتين، سحبت أصابعي إلى الوراء خجلا ثم أطلقتها (ولماذا أخجل، وهل هناك مكان للخجل في هذه الشعاب الكابوسيّة، وهل يعرف هؤلاء المسوخ الخجل ؟!!!)

انطلقت نحو البطحاء، كان الأطفال والنساء الحوامل قد لحقوا بالرجال الأشدّاء وشكّلوا حلقة كبيرة حول المرأة العارية التي تحوّل جسمها الأبيض إلى خرقة زرقاء تطلق أنينا ضعيفا. توقّف التهليل والصياح، تقدّم رجل بلحية رمادية إلى قلب الدائرة وقال موجّها كلامه إلى الحضور :

يا أيها الناس

يا أبناء المنافيخ الصامدة في وجه الأهوال واللّعنات.

هذه ابنتكم التي أكلت من عشبكم وباركتها الغرّافة وزوّجتها من أحد سادتكم فأسكنها قصرا وألبسها الحرير المطرّز بالذهب والنعال الموشّاة بالفضّة وزيّن عنقها بقلائد الجوهر والمرجان وأصابعها بالخواتم المحلاة بأندر الأحجار، ها هي اليوم، بعد أن مات زوجها المسكين، تردّ لكم وله الجميل فتهديكم لعنة اللعنات...

احكموا عليها بما يناسب خطيئتها.

عندها تقدّم عجوز أفطس يجرّ ساقيه وراء عصاه وقال : ليس قبل أن تروي لنا هذه الفاجرة حكايتها حتّى يعلم الجميع جُرمها، هيّا أسندوها.

لم تكن المرأة تقوى على الكلام لولا تلك السّياط التي انهالت عليها من الشيخ الأفطس الذي انتصب وحْشاً لا يرحم، يرفع السوط عاليا وينزل به في شدّة على الجسد المكلوم فيصدر فرقعة شديدة ويترك حزاما من الدم مرسوما على كتف المسكينة التي تعوي وتروي :

بـ بـ بدأت الحكاية عندما اكتشف زوجي عقمه وأصبح يفيق من نومه مذعورا يصرخ باسم المخّاخ. كان ينتظر كل يوم أن يدخل علينا أحدكم ويجرّه نحو الشجرتين، كان كثيرا ما يأخذ في ضرب رأسه على الحائط وهو يردّد : تبّا لهذا الرأس الذي

سيأكله المخّاخ. فأركض نحوه لأضمّد جراحه وأمسح عن جبهته ذلك الدم النازف. قمت ذات صباح فوجدته يتدلّى في السقف أزرق، لقد شنق نفسه ليلا. يبدو أنه خيّر الانتحار على الصلب للمخّاخ. أصابني ذعر بداية الأمر غير أنّي كتمت صراخي ووأدت دموعي وأنزلته من السقف، فككت الحبل عن عنقه، مددته على فراشه وخرجت لكم أروي قصة أخرى. قلت لكم عاد ملسوعا أو ملدوغا وأن السمّ لم يمهله كثيرا ففارق. لم يشكّ أحد منكم في كلامي خاصّة عندما رأيتم زرقة جسده الذي ظلّ معلقا ليلة كاملة. تسألونني لماذا كذبت ؟! كنت أخشى أن أكون أنا قربانا للمخّاخ، أو أن أكون طعاما لنيران البطحاء.

وبعد دفن زوجي بقيت في بيتي لا أبرحه كعادة كل الأرامل، ومرّ على الحادثة شهران، كنت أعلم أنّه إن لم يتقدّم لي رجل في تلك المدة فسوف أكون قربانا للغرافة فأذبح في الكهف وينثر لحمي على الصخور لأنّ المرأة العزباء، كما تردّدون دائما، لعنة على أمتنا، لذلك كنت أفتح الشباك وأضيء البيت وأهزّ صوتي بالغناء في ليالي الشتاء الماطرة لعل الصوت يصل إلى أحدكم فيأتيني، وفي ليلة...

صمتت المرأة... عادت فرقعة السوط على جسدها عوت ورَوَت :

ف... في تلك الليلة المظلمة كنت أغنّي غناء العاشق العطشان والحبيب الذي أحرقته الصبابة، وفي لحظة سمعت حشرجة أمام

بيتي ولمحتُ ظلاّ يطل ويختفي من النافذة المفتوحة، عدت إلى ندائي وغنائي لعلّ الرجل الخجول يقفز إليّ من النافذة. وعندما طال تردّده وخجله نزعت عني أثوابي وأطفأت قنديلي، ارتميت على فراشي أقلّب شهوتي وأنادي: هيا عجّل أيّها الخجول، لقد أطفأت القنديل وما انطفأت ناري. في تلك اللحظة رأيت في الظلمة كأنّ رجلا يملأ النافذة ويقفز نحوي، انقضّ عليّ يضاجعني في وحشية غريبة. تسلّلت إلى أنفي رائحة مقرفة، أردت أن أدفع ذلك الشيء الجاثم فوقي ينهشني. كسرتني الصدمة عندما لمست ريشا قويا خشنا، صرخت صرخة واحدة غير أن شفاها نتنة كتمت صوتي ثمّ نهض عنّي وطار من النافذة وترك بعض ريشه على فراشي وبذرة اللعنة في رحمي. الرحمة يا سادة ! الرحمة !

انهارت المرأة.

نهض الشيخ الأفطس وقال موجّها كلامه إلى الناس المشدوهين من حكاية المرأة :

ما حكمكم يا خلق في امرأة تعهر مع عدوّنا وقاتل صغارنا ؟ ما حكمكم يا خلق في امرأة تعاشر لعنتنا ؟

أجاب الجميع، النساء والرجال والأطفال في صوت واحد :

النار... النار... النار

عندها التفت الشيخ الأفطس إلى رجلين مثل الجبلين وأشار إليهما بالمرأة العاوية، حملاها رجلا وساقا ورميا بها في

النار العظيمة المنصوبة قربها، و لم نعد نراها ولا نسمع عواءها، كانت ألسنة النار تمزّق السماء.

أمر الشيخ الأفطس بأن يجمع رماد القتيلة ويذرّ على قبر زوجها ويحفظ بعضه في جرّة ويحمل إلى الغرافة. وتفرّق المتفرّجون.

في ذلك اليوم قرّرت أن أهرب. كان لابدّ أن أفرّ بجلدي حتى لا أكون حطبا للنار أو طعاما للمخّاخ.

* * *

.....

.....

* * *

لم يكن اختياري لذلك اليوم صدفة، فقد مكثت في بيتي أياما أتدبّر أمر الهروب إلى أن اهتديت إلى ذلك اليوم الذي ستهبّ فيه كل تلك المخلوقات العجيبة إلى الغرّافة لتحيي عيدها السنوي. ستهرع تلك المسوخ على بكرة أبيها إلى الكهف الجبلي، تدق الطبول وتهتف للسيدة العظيمة. سيحملون الأضحيات والقرابين. سيكسرون الجرار وسيأكلون اللحوم المحرّمة. سيأتون نساءهم من مؤخراتهن في ذلك المكان المقدس تبرّكا. وسيهتفون للسيدة أن ترزقهم ببطل يخلّصهم من عدوّهم وسالب عقولهم ولاحس أمخاخهم.

لن تتصوّر حالتي وأنا أترقّب ذلك اليوم. كنت كالأسير الذي ينتظر ساعة الفرج، أعلّم بالفحم على الجدار كلّما أتاني الليل بعد نهار من العجائب.

في فجر ذلك اليوم كنت أقف أمام النافذة منتظرا طلوع الشمس وبداية الحركة. لم تأت الشمس كعادتها حتى حسبت أنها انتحرت أو انفجرت وراء الجبل لتتركني أسيرا بين هذه الوحوش وفي هذه الظلمة الخانقة.

بعد ساعات من الانتظار المميت، احمرّ الأفق وبدأ النور يطرد الظلام والألسنة الخضراء ترمي النجوم بأسْهُمٍ فتصيبها في مقتل وطلعت الشمس : ربة جبّارة تخرق خضرة الغابات وبياض الجدران، تحرّكت الشّعابين من جحورها وتململت العقارب من تحت الصخور وصاح ديك شهرزاد المسنّ.

هل نجوتُ ؟!! أطلقتُ سؤالي خافتا، فانزلق مني وهوى من النافذة نحو الوادي. في تلك اللحظة قُرعت الطبول وانهمر الخلق من بيوتهم يهتفون، رجال ونساء وأطفال وعجائز يصّعّدون الجبل الأسود، يحملون الأواني النحاسية ويجرّون خلفهم متاعا وخرفانا ومعيزا. ظلّ نهر البشر ينزف نحو الأعلى لساعة ثمّ انقطع.. انتظرت بضع الساعة حتى تأكدت من أن الجميع التحقوا بالكهف البعيد. عندها جهّزت زوّادتي التي ربطتها على بطني جيدا حتى لا تعوقني عن السير، وانحدرت نحو الوادي أركض في غير التفات تمزّقني الأشجار والأغصان وأمزّقها. أقفز على الصخور الناتئة والحفر الغائرة كما لو كنت شابا في العشرين. الخوف جعلني أرتدّ إلى شبابي. نقول في

أمثالنا الشهيرة : «الخوف يعلّم السبق». في ذلك اليوم علّمني الخوف السبق وركض الغزلان.

كنت أركض في اتجاه أراه على مرمى البصر، موضع بين جبلين على بعد عشرين فرسخا إن عبرته فقد نجوت من هذه الأمّة.

أدمتني الأشواك والصخور ونزفت من كل مكان؛ من يدي، من ذراعي، من ساقي، من قدمي، من رأسي، من عنقي، لكنّي أبدا لم أقف و لم أستسلم، كل ما فيّ كان ثائرا، عروقي كلّها تنبض والدم يتدفّق كالنهر الجارف.

عندما استقرت الشمس في كبد السماء وأناخت نصف رحلتها كنت قد شارفت مضيق الجبلين. شعرت بالارتياح فتوقفت عن الركض كان أمامي نهر جار بماء عذب. اغتسلت وشربت. كان طعم الماء معطّرا برائحة الغاب. روائح الإكليل وعبق الزعتر واضحة شربت مرّات. شعرت بالارتواء والامتلاء. ثقلت. أردت أن أركض فلم أستطع كان الماء يضطرب في بطني فيعوقني عن السير... انتبهت إلى المكان. كان الشّجر الأخضر المورق مثقلا بثمار صغيرة جدّا في شكل التفاح، قضمت واحدة فأعجبتني. انهمكت أجمع منها وأضع في زوّادتي لعلّها تكون غدائي في ذلك الهروب إلى المجهول. أكلت من تلك الثمار حتى شبعتُ. قيل لي بعد ذلك أنّها ثمار الزعرور، نبات حلو وحامض أحيانا بعضه أصفر وبعضه أحمر ينبت في المرتفعات الشمالية، وقيل لي إنّها «تفّاح الجنّ». لم يكن يعنيني الاسم كثيرا.

وتابعت سيري غير راكض، لم يعد يفصلني عن غايتي غير فراسخ معدودة.

بعد نصف ساعة كنت بين الجبلين، أطلّ على وهاد خضراء وسهول فسيحة. التفت ورائي فتراءت لي «المنافيخ» وغرّافتها بعيدة قصيّة، فلم أقدر على حبس صرخة فرح كانت ترفس أمعائي فنظرت إلى السماء كالذئب أريد الصراخ عاليا لتسمعني الملائكة والشياطين... فرأيته...

– ماذا رأيت يا شيخ ؟! الملاك أم الشيطان ؟!!!

تمزّقت صرختي في أحشائي. انكسرت عضلاتي المتشنّجة وجفّ الريق في حلقي وانحبس النهر المتدفّق في عروقي ونبضت أوجاع الجروح وكدمات الطريق.

كان المخّاخ على غصن الشجرة، فوقي، يخبّئ رأسه تحت أجنحته. تحسّست مؤخرة رأسي. كان دماغي مازال يخفق، ربّما هي لحظاته الأخيرة قبل أن ينقلب وليمة للمخّاخ سألت دماغي ماذا تراك تفعل الآن ؟

أرشدني إلى طريق نجاتك، هل تأمرني أن أركض نحو هذا المضيق لأشهد هذه النهاية ؟!!

عدت إلى قدري الذي يعلوني فوق الغصن، كان يبدو نائما، يطلق صوتا كالشخير.. سحبت جثّتي عبر الأحطاب والأغصان مثل ثعبان جريح وابتعدت. كنت أنتظر بين اللحظة والأخرى أن ينزل عليّ القدر من الشجرة فيفجّر رأسي ويكسر عظامي، لذلك كنت أزحف وكفّي على دماغي. وماذا ستفعل

تلك الكفّ الليّنة وتلك الأصابع الرقيقة أمام تلك الخناجر اليمنيّة التي رأيتها تمزّق جمجمة الرجل المصلوب ؟؟!! ابتعدت قليلا عن موقع الشجرة. نهضت. كانت ركبتاي خائرتين، لكني قرّرت أن أركض ولو كانت ركضتي الأخيرة. على المؤمن أن يسعى والقدر بيد الله وحده. لا أدري من أين نزل عليّ كل ذلك الإيمان ولكنّي ركضت وركضت...

اعترضني النهر مرّة أخرى. لا أدري هل كان هو نفسه النهر الذي اغتسلت فيه وشربت، ربما هو طرفه الآخر، وربما هو غير ذلك النهر. لكني قرّرت أن أغتسل فيه اغتسال من قرّر لقاء ربّه. ارتميت فيه بعد أن تخلّصت من أثوابي ونزعت عنّي أوساخ الدنيا وأدرانها. شعرت كأنه الضوء ينسرب إلى قلبي، فتحوّلت إلى كائن شفاف صاف مثل ماء ذلك النّهر. كان نهرا عجيبا خلّصني من كل خوف حتى أنني نسيت المخّاخ والمنافيخ وانهمكت أتقلّب في الماء أطارد قوافل الأسماك الصغيرة التي كان يجرفها التيار إلى الشمال... وفجأة وأثناء لهوي الطفولي، سقطت عليّ شباك خشنة سرعان ما احتوتني مثل سمكة ضعيفة لا حول لها ولا قوّة. أحسست أن هناك من يسحبني بشدة. حاولت التملّص من تلك الشباك دون جدوى.. توقّف السحب. مسحت عيني من الماء والأعشاب العالقة بي. كان صائدي رجلا من أصحاب الوجوه الطويلة التي تركتها هناك. كان يقف أمامي وبيده حربة مدبّبة وهو يبتسم. مرت برهة وهو صامت ينظر إليّ محافظا على ابتسامته قبل أن يقول :

– لقد وقعت أيّها الشقيّ ألم نخبرك أنّه من دخل على أمّتنا لن يفارقها إلاّ إلى النار أو إلى الصلب ؟!!

تخلّصت من دهشتي وصدمتي وأجبت :
– ولكن هذا حرام، عندي أطفال تركتهم هناك وامرأة مسنّة لا تقوى على قضاء شؤونها. استحلفتك بالله وبالغرّافة التي تعبدون وبالبطل الذي تنتظرون ليخلّصكم من عدوّكم أن اتركني أعبر هذا المضيق.
– هذا وحق الغرافة العظيمة المستحيل، أنا حارس الحدود ولا أخون أمتي ما حييت، هيا انهض فأنت أسيري وغنيمتي في هذا اليوم المبارك.

جرّني إلى كوخ من قصب، وضع في معصمي ورجلي الأصفاد والسلاسل وأغمض لي عينيّ بعصابة سوداء فلم أر شيئا.

* * *

في تلك الليلة سمعت صائدي يئنّ وزوجته تنتحب، ازداد أنين الرجل مع آخر الليل، كنت أسمع حركة الزوجة المضطربة، فهمت بقليل من الفطنة أن الرجل مريض وأنّ الزوجة حائرة في أمرها لا تدري ماذا تفعل في تلك الشعاب القصيّة وفي تلك الظلمة الحالكة. أطلقت صوتي نحوهما :
– أيّتها المرأة إن كان زوجك مريضا فأنا طبيب ويمكنني أن أشفيه من دائه ؟!

جاءتني صاحبة الأقدام المضطربة مسرعة وسمعتها تقول:

– هل أنت صادق في ما تقول. هل يمكنك أن تعالجه ؟ قلت وأنا أتململ من وراء العصابة.
– بإذن الله، انزعي عنّي هذه العصابة أوّلا لأراه.

رَفَعَتْهَا عن عيني وأشارت إلى زوجها المستلقي في الركن فأشرتُ لها أن انزعي عنّي القيود، فأبت، فقلت : لا بأس، أسنديني حتى أصل إليه.

تحسّست جبهته المتصبّبة عرقا فاشتعلت كفّي، كان محموما قلت للمرأة إنّ الحمّى تكاد تقضي عليه. هيا ايتيني ببعض أوراق الزيتون. سريعا جاءتني بطلبي وأخذت تتابعني وأنا أسحب من زوّادتي قلما وأكتب على الورقة الأولى «عصت جهنّم»، وعلى الثانية «نُحرت جهنّم» وعلى الثالثة «عطشت جهنّم»، أحرقت الأوراق ورقة ورقة، بخّرت بها الزوج العليل وكتبت له حرزا فيه سورة «الإخلاص».

وأردفتها بخواتم ثلاثة علّقتها كلّها في رقبة الزوج وأمرت حليلته أن تضع كمّادات الماء البارد على جبينه.

انقضت ساعات ثلاث، بدأ المريض يفتح عينيه، تململ في فراشه، تهللت أسارير الزوجة وهي ترقب ابتسامة بعلها، تركته وعادت بشُربةٍ ساخنة، أخذتها منها ورحت أطعمه إلى أن اكتفى. أسندته إلى الحائط وسألته :
– كيف أنت الآن ؟
– تحسّنت، ماذا فعلت حتى تشفيني من داء ذهب بصغاري السبعة.

– هو علم من عند الله ورحمة منه وتجارب من عبده.

سألني : بماذا سأجازيك ؟ فقلت :

– اتركني أرحل إلى صغاري.

صمت الرجل مدّة. اقتربت منه زوجته ووشوشت في أذنه ثم عادت إلى مكانها. فقال : لقد وهبتني حياتي وليس أحسن من أن أردّ لك هذا الجميل في هذه الليلة لأنّي لا أحسب أني قادر على ذلك إن جاء الصباح وحضر أعوان القائد. هيا انهض وغادر في الظلام فأنت حرّ.

قامت الزوجة فرحة وفكّت قيودي. نهضتُ وقدّمت له من الزوّادة كتاب السيوطي : «الرحمة في الطبّ والحكمة» و«دعوة الأطبّاء» لابن بطلان و«شرح فصول أبقراط» لابن النفيس و«زاد المسافر وقوت الحاضر» لابن الجزّار.

– خذ هذه الكتب هي هديتي ستعينك على مهالك المرض وتذكّر دائما قولة الحكيم الأكبر «**لا تجعلوا بطونكم مقبرة للحيوان**».

فرح الرجل كثيرا وأمر زوجته أن تملأ زوادتي ثمارا وأعشابا وعلّق في رقبتي حبلا يتدلّى منه ضرس غريب وقال : هذا الضّرس ضرس بغل سيحميك من المخّاخ، ولن يقربك أبدا. وهذا سرّ لا يعرفه غيري. اذهب ولا تخف من ذلك الطائر اللعين.

خارج البيت كانت زوجة الحارس، التي رافقتني لترشدني إلى الطريق، تقترب منّي وتتعمّد ملامستي بحركات مثيرة وعندما لم أبد تجاوبا رفعت ملاءتها عند الوادي وكشفت عورتها المشعّرة وقالت :

– ألا ترغب في هذا ؟

بهتّ في ذلك الجسد الغريب. كانت تزيّنه أوشام عجيبة زادته فتنة. تقدّمت منّي أكثر، مسكت يدي وأخذتها نحو شيئها مسحت بها. ضغطت عليها أحسست أنّ بعض أصابعي انزلقت نحو شقّها المبتل. رفعتها نحو فمها لحست أطراف أصابعي. تنهّدت واستدارت بإستها. كان مثل قبّة بيضاء تلمع تحت ضوء القمر. لم أشعر إلا وأنا أشقّ طريقا دافئا مزبدا وأداعب بكفيّ تفّاحا ورمّانا وبرتقالا... كنت أضرب فرسي ببطن فخذي وهي تركض بي نحو مجهول اللذّة و لم أنزل عنها إلا عند الفجر. انزلقت داخل فستانها. تأمّلتني وقالت : لقد اشتهيتك مذ جاء بك زوجي إلى الكوخ أسيرا. شعرت انّك هديّتي ورجل أحلامي الأولى التي ما عادت تأتيني. في أوقات كثيرة من الليل كنت أتمنّى أن تذهب الحمّى بزوجي لأرحل معك .

– ولكن لماذا اخترت هذه المجامعة ؟ قلت وأنا أتحسّس قبّتها اللّذيذة.

– القبّة للمئذنة هكذا حدّثني عرّاف مسلم زارنا ومات في ديارنا، هو الذي علّمنا العربية. لقد حرمنا هذه المتعة مذ حلّ بأرضنا المخّاخ. فتحة الفرج أصابها اليبس من كثرة المعاودة و لم تعد تناديها الشهوة، ولكن اليوم عاودها ماؤها، أصابعك أعادت إليها الحياة .

قلت وأنا أدحرج كفّي إلى شيئها من جديد : هل نعاود ونغيّر الرّحل ؟

تنهّدت وذابت .

بعد ساعة راحت دامعة ورحت دامعا، وندمت لأنّني لم أسألها عن سرّ آثار ذلك الجرح الذي شقّ إستها بالعرض.

كنت أسير وطيور المخاخ تحلّق فوقي ولا تقربني. كانت الصغار فقط تحطّ على كتفي ولا تؤذيني. كنت أغلق أنفي من رائحة ريشها النتنة. ظلّت تلك الطّيور تحرسني إلى أن عبرتُ جبالا وقرى كثيرة : **القنوات، الحِجّاج، الغموقات، ميّان، العقاب، قماطة، بوجليدة، جنان الجزائري، أولاد عرفة، أولاد خلّوف، صبيكلا، النخلات، لولاج، جبل الجبالية، جبل الريحان، خشّة شعبان، السبعة الرقود، الحُفرْ، خنقمورو، الرميل، مصراته، رياح، سيدي عياد، واد العرعار، الفراشيش، المخاوشية، كنانه...**

وكانت تسكن هذه الأقاليم أمم غريبة ما رأيت مثلها قطّ منها «**أمّة طوال خفاف زرق ذات أجنحة كلامهم فرقعة، ومنها أمّة أبدانهم كأبدان الأسد ورؤوسهم رؤوس الطير لهم شعور وأذناب طوال، كلامهم دوي، ومنها أمّة لها وجهان قدامها وخلفها وأرجل كثيرة وكلامهم كلام الطير، ومنها الجنّ، ومنها صفة الجن، وهي أمّة في صورة الكلاب لها أذناب وكلامها همهمة لا يفهم. ومنها أمّة تشبه بني آدم أفواههم في صدورهم يصفرون تصفيرا. ومنها أمة في خلق الحيات الطوال لها أجنحة وأرجل وأذناب، ومنها أمة يشبهون نصف شق الإنسان لهم عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة يقفزون تقفيزا، وكلامهم مثل كلام الغرانيق ومنها أمّة لها وجوه كوجوه الناس وأصلاب كأصلاب السلاحف، وفي أيديهم مخالب، وفي رؤوسهم قرون طوال، كلامهم كعوي الذئاب ومنها أمة لكل واحد منهم رأسان ووجهان كوجوه الأسد طوال لا يفهم كلامهم...**»

وأغرب ما شاهدت في تلك الأقاليم «**أمّة في خلق النساء لهم شعور وثدي وليس فيهم ذكر، تلقح من الريح وتلد أمثالها، ولها أصوات مطربة يجتمع إليها كثير من هذه الأمم لحسن أصواتها.**»

أظنّك الآن ترميني بالخبل وخلق الأكاذيب ؟

– لا والله، بل أنا مندهش، لأنّي قرأت عن هذه الأمم في كتاب لم أعد أذكره.

– وماذا قرأت عنها أيضا ؟!

– قرأت أنّها من الأمم التي خلقت قبل آدم عليه السلام، فهل تراها بقايا تلك الأمم التي حسبنا أنها اندثرت وأبيدت ؟!

– هل ذكر الكاتب شيئا آخر عنها ؟

– أذكر انّه قال إنها ثمانٍ وعشرون أمّة ويقال إن هذه الأمم تناتجت فصارت مائة وعشرين أمّة و لم يزد عن ذلك.

– لا تطلب مني مزيدا من التفاصيل عنهم. فالذاكرة بدأت تخونني في هذا الصقيع. قد أعود إليهم في حكاية أخرى، لنعد إلى حكايتنا.

– وبعد ! ماذا حصل معك ؟!!

– واصلت رحلتي مصحوبا بسرب من المخّاخ يحرسني من وحشية تلك الأمم حتى أدركت الطريق المعبّدة. كانت الشاحنات والسيارات تمزّقها في سرعة جنونية. لم أعد أذكر شيئا غير يدي الممدودة إلى الطريق تحاول أن توقف الضوء وأنا مشدود إلى ندمي على ما اقترفت مع زوجة الحارس. كان الضوء المُعمي يتّجه نحوي مسرعا. رفعت كفّي أحتمي منه، لكن فات الأوان كانت عظامي تتهشّم تحت عجلات الشاحنة وانتهى الأمر...

لا أعلم كم من الأيام مرّت عليّ وأنا في غيبوبتي. عندما أفقت في ذلك الصباح كنت في ورشة نحّات عصبي يلسعني بكاويته الكهربائية. غالبت ألمي حتى انتهى من ترميمي. وضع بين يديّ الكتاب ولسعني من جديد أردت أن أقول له إنّ هذا التمثال الذي رفعته يشبهك ولا يشبهني بلحيته الشعثاء وعينيه اللوزيتين فهل تراك كنت تروم تخليدي أم تخليد نفسك ؟

هل كنت بخلقك هذا تسعى إلى تذكير الناس بفكري أم بفنّك ؟ هل كنت تبنيني أم تبنيك ؟ كل ما أعلمه الآن أنّك تكويني فهل تراك تكْوِيكَ أيضا ؟! مسح على رأسي مبتسما وغاب. حملوني بعدها إلى قاعدتي. وها أنا كما وجدتني أقضي نهاري أخاصر السائحات اللائي يقفن بجانبي لأخذ الصور التذكارية، وفي الليل يأتيني المنسيون لاسترجاع الحكايا ومراقبة دوران عقارب الساعة العملاقة.

قم. يكفي هذه الليلة. لقد بدأت الحركة، وحانت الساعة. سأعود إلى قاعدتي ووقفتي ونسائي الجميلات...

انتصب ابن خلدون؛ رجلا من الرصاص، حمل كتابه القدري وغاصت قدماه في قاعدة الإسمنت. لمعت قلادة ضرس البغل على صدره. خلعْتُ عليه برنسه وهممت. لا أدري ما الذي جعلني التفت إلى اللوحتين التذكاريتين أسفل التمثال لأقرأ على قطعة الرخام الأولى :

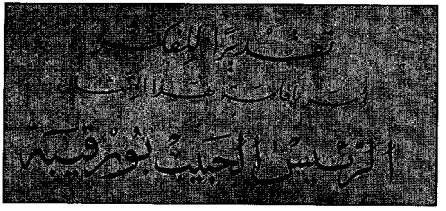

انسحبت إلى الثانية :

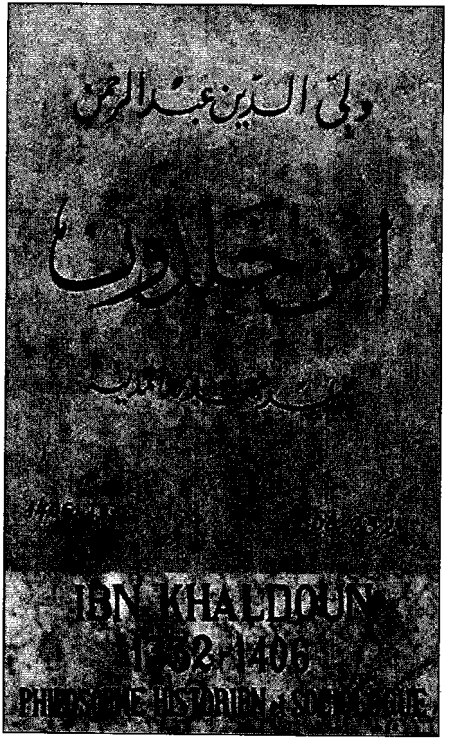

أضفت بعقب السيجارة المحترق كلاما لم أعد أذكره ورحلت...

ظللت، وأنا أنطفئ في الشارع الحزين أتساءل عن النحّات الذي سها عن ذكر اسمه ليترك الشارع للعلاّمة والسلطان.

3

« ما أشد حماقة من يموت بالحمّى ! »

أين سأبيت الليلة ؟! أكاد أجنّ... لم أعد قادرا على احتماله... إنّه شيء لا يطاق... أمر فظيع... الحلم البشع يعاودني. أنزل من سريري وأتّجه نحو الحنفيّة. أقذف برأسي في حوضها تاركا الماء البارد ينهمر على رأسي المشتعل. أشعر براحة كبرى. الماء يذيب الصداع الجاثم على رأسي منذ عام لا يتركه. الماء يحفر في الجمجمة القذرة. يغسل أفكارها المتطرّفة وقناعاتها المتعفّنة...

كان السيل يجرف برك القيم الصدئة التي أرهقتني طويلا وجعلت منّي هامة نحيفة تثقلها هموم النهار وتعذّبها وحدة الليل المسكون بالكوابيس. تخلّصت من ثيابي ودخلت الحوض. وقفت وحيدا وفتحت الطوفان... هطلت أنواءه تطهّر النفس من خطاياها وتوقد النار في الجسد الفاني. انتفض راقصا محتفلا ساعة. أسكن ساعة... إلى قداسة الماء... أتعبّد... يتعبّد... تتعبّد في داخلي طرق السماء.

نزلت على ركبتين احتضنتهما الذراعان، التصق الصدر بالفخذين واختفى الرأس بين الكتفين، والماء مازال جسورا، ينهمر كالنور ناحتا تمثالا من اللذّة...

كم يريحني هذا الوضع الانطوائي الذي يشعرني بالأمان وينقذني من حياة الألم الذي لا يشيخ ومن ذهني المطرّز بالفجائع ويهرب بي بعيدا عن ذاكرة الهزائم...

كيف يمكن أن أنسى ؟ وكيف أنسى والحقيقة كالسيف تحشّ أحشائي كل ليلة مدمّرة حصون السكينة، مهدّمة أسوار نفسي الآمنة... الليل يتوعّد بالحلول... ها هي خطواته الثقيلة... هاهو الضوء يختنق بين كفّيه والظلّ يشتدّ سواده. وها هي عيون النوافذ يصيبها العمى. وداعا أيّتها الرؤية رحماك أيّتها الرؤيا...

* * *

ينساب الجسد، يتحوّل إلى شيء غريب أشبه بجذع شجرة يابس اجتثّته الريح من مكانه ورمت به في شارع مقفر تصطاف فيه الريح ويُواقع فيه الوحشةَ الغبارُ. تتلاشى تضاريس وجهه ويتلاشى إحساسه بها... هو لا يذكر كيف كانت ملامحه، ينتابه شعور بالنسيان وإحساس بالخوف ورؤيا تخلع أقفال مخازنه...

تتراصّ الرؤوس أمامه. يندفع نحوها ليختار رأسا يُصلح به هامته. تمتدّ يده... تتحرّك الرؤوس. تفتح أفواهها الفائحة بعطر الجيفة... تقضم أصابعه. تجتثّها من المعصم.. تأتيه أصوات أسنان الرؤوس تحطّم عظام أنامله كأنّها الماعز تجترّ في الليل ما جمعته من نبق النهار.

لابد أن يستعيد رأسه.. هذا الوضع لا يعجبه.. اشتاق إلى مكره.. إلى رأيه.. إلى فكره المجبول على الرفض.. يمدّ يده اليسرى نحو ركام الرؤوس الغريبة فتلقى مصير يده اليمنى. اجتثّت من الكتف... هو العجز. وسخف الاتجاه.

يرفع ما تبقّى من يده اليمنى ذراع قد سُرقت أصابعها، يحكّ بها مكان الرأس المفقود، تفوح نتونة النتن العظيم، ينفتح جرح غائر، ينبت فيه عظْم غريب، ينمو في بطء... يكسوه لحم أحمر مسلوخ.. يتكاثر اللحم حول العظم مثل الرأس. كرة كبيرة من اللحم المفروم تنزف في غير توقّف... يحاول الجسد الفرار من هذا الرأس الملعون، يركض يمينا وشمالا، يعتدل، يمشي بين اللحم والعظم، يسري مثل اللّهب، يسيل مثل الموت في الشريان... يتعثّر الهيكل، يسقط... ينهار عليه الرأس الموبوء... يسدّ أنفاسه، يختنق، ينتفخ البطن يتعاظم، ينسحب الرأس إلى الداخل يتكوّن جنينا مبتور الأطراف، ينمو مثل الطاعون، يكتمل التكوين وتحين لحظة اللحظات، يتسلّل الجنين سليل الأورام نحو الجرح، الجرح يئنّ، يتعطّل الخلق، يشتدّ الدفع، تنحبس الأنفاس، يضيق الجرح... يهتزّ الجسد.. ينتفض... يهتزّ... تنفجر الجثّة أشلاء.

4
رؤى

الرؤيا الأولى

ها هو آدم يندحر من الجنّة باكيا يخبّئ وجهه بكفّيه، أذابه الحزن، جسده عار،إسته شاحب، خطواته ثقيلة.

آه يا مصيري المجهول... آه يا غدي الأسود كيف سألقاك؟

أقسم بهذه الجبال وهذه السماء وهذا القدر الأحمر الذي أمشيه حافيا أنّي بريء وأن يدي ما لمست ثمرة الحرام... لماذا لا تعترفين يا حوّاء ؟!! لماذا لا تقولين الحقيقية ؟ مازلت تنشغلين بستر سوأتك ؟ عمّن تحجبينها ؟ ليس في هذه الوهاد غيرنا ؟ خطيئتنا هي سوأتنا لو كنت تعلمين. ستصاحبنا اللعنة إلى يوم الدين. سيلعننا نسلنا، وسيلتفّ حولنا أحفادنا ويسألوننا عن فعلتنا. لماذا يا حوّاء ؟!!!

– ما بك يا رجل هل جننت ؟!!

– لماذا خالفت أوامر الربّ ؟ لماذا أكلت من حرام الشجرة ؟ ألم تكفك الجنّة ؟!!

– من قال إنّي أنا التي أكلت، لماذا لا تكون أنت ؟

– أنا ؟!!

– نعم أنت، Masaccio لم يقل إنّ حواء هي التي أذنبت.(ماذا أقول له هذا الرجل الغبي ؟ألا يعلم أن الأمر أكبر من قطف تفاحة؟ألا يذكر ما اقترفناه ليلة البارحة؟)

– لكنّك تعلمين أنّك أنت من فعل.

– كفّ عن البكاء والشكوى وفكّر معي، أين سنبيت الليلة ؟ كيف سنعود إلى الجنّة، مازلنا أمام الباب... سأغري الحارس، سأطعمه من ثماري.

– أنت واهمة يا حمقاء، فما عدت حسناء، لقد سلبت منك الخطيئة حسنك، ما أقبحك يا حوّاء !!!

كفّت حوّاء عن البكاء بعدما رأت وجهها في أوّل غدير اعترضها، أفزعها شحوبها فانتبذت لها مكانا على حافة الغدير وراحت تغتسل وتمشّط شعرها متردّدة على صورة وجهها على صفحات الماء. كانت تتذكر تلك المجامعة الأخيرة قبل أن تترك الجنة. كان آدم صلبا كالجمل وهو يوغل فيها خنجره من الخلف. هاهو اليوم يتدلّى في حزنه. ينتف شعر جيرته. كان حزن آدم أعظم من أن يمحوه ماء غدير، ظلّ صامتا وذهنه مكدود؛ تمثالا للخسران.

الـرؤيـا الثانيـة

فَضَحَكِ وعرّاك Albrecht DÜRER، رصدك بجريمتك تلتقطين التفاحة كان الأسد والحيّة والطيور شهودا على خطيئتك حتّى الغصن المُورق الذي غطّى عورتك كان شاهدا، كنت واثقة من نفسك، تقفين في شهوانية، ساقك اليمنى إلى الأمام واليسرى تختبئ في خجل من فعلة يدك اليسرى.

– لم أقطف شيئا باليسرى.

– بل باليسرى قطفت تفاحة النهاية.

الـرؤيـا الثـالـثة

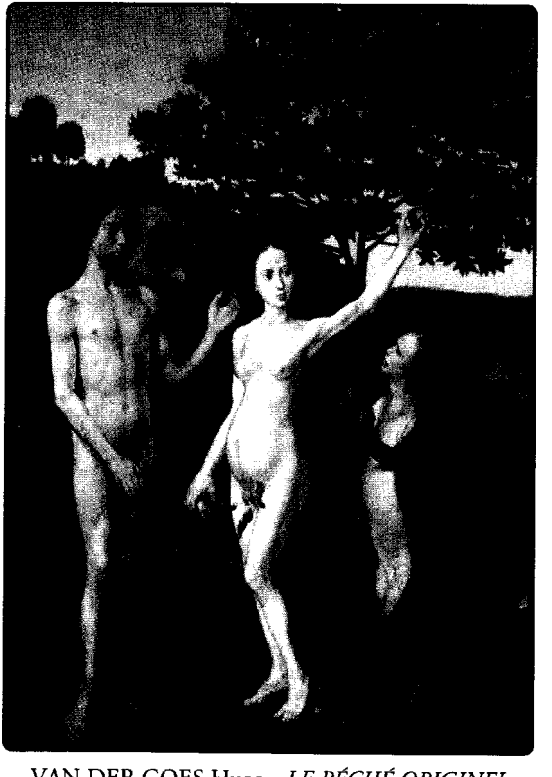

VAN DER GOES Hugo - *LE PÉCHÉ ORIGINEL*

أما زلت تنكرين، انظري الدليل، بالزيت على اللّوح، لن تَمحُوه السنون، منذ القرن السابع عشر ويدك متحجّرة ترفعينها لتلتقطي الثمرة، انظري الثمرة في يدك اليسرى ويدك اليمنى تحمل ثمرة أخرى، وهاهما يداي فارغتان طاهرتان، قطفت الأولى لك وتقطفين الثانية طعما لي، انظري إبليس، هاهو يقف وراءك في صورة الأفعى الملعونة ، ماذا كان يفعل خلفك ابن القحبة !

أنت الجانية... أيتها الخائنة !

«وشوشني آدمْ
بغصّة الآه
بالصمت بالأنّة
لستُ أب العالمْ
لم ألمح الجنّة
خُذْني إلى الله »(*).

(*) أدونيس.

5

في ذكر سيّدة الرُوتُنْد

«رأيت ملاكا... نازلا من السماء، له سلطان عظيم، أضاء بهاؤه الأرض وصاح بأعلى صوته : سقطتْ، سقطت بابل العُظمى، وصارت وكْرا للشياطين ومأوى لكلّ روح نجسٍ ولكلّ طائر نجس مكروه، لأن جميع الأمم شربت من خمر زناها، وملوك الأرض زنوا معها، وتجّار الأرض اغتنوا من كثرة ترفها»(*).

إيقاع رصيف شارع باريس..

أكل الجبل الشمس قبل قليل ورمى الليل لحافه على كتفي الشارع المطعون بنور فانوس نحيل. أتى صوت المؤذّن من بعيد داعيا إلى الفلاح سائلا أن اتركوا هذا الرّاوي المجنون...

كانت تحت ضوء الفانوس تُصلح زينتها ماضغة علكتها أو ربّما علّتها، خصرها بات عريضا وبَطْنها النافر ما عاد يسمح لها بتعرية صُرّتها... إستها مازال يؤلمها من جلسة البارحة على قاعدة تمثال ابن خلدون، قضت الليل تكلّمه لكنّه لم يجبها، هو الآخر ينام في العراء.

(*) الإنجيل، الرؤيا 18.

أين ستنام الليلة ؟!

أين ستنيخ رحْلتها ؟

حكّت رَبْلتَها بكفّ حذائها، ضوء الفانوس جمّع أسراب الناموس، حشرات الدنيا جاءته... والجسم الثقيل تزداد علّته البعوض يغُطّ أنيابه في اللحم ويشرب... دماء امرأة عاشت عمرها تلعن رأس المال والخوصصة والملكيّة الفرديّة وتحيي ذكرى أوّل خيانة زوجيّة ارتكبتها مع رجل مجهول طرق باب منزلها خطأ.

تركت الرصيف الأيمن المهجور وعانقت فانوس الرصيف الأيسر المعمور، كان الفانوس جثّة لكن الهامات لم تتوقّف عن التزاحم فوق الرصيف مثل وعول تعبر النهر هاربة من أنياب أسود جائعة...

الكل يُريد العتمة... يحملون في جيوب معاطفهم وحقائبهم ما نهبوه من الدنيا ومن مكاتب الإدارات العامة والخاصّة :

أقلام فاخرة وورق رفيع وتحف وساعات حائطية وستائر وملفّات طوابير الانتظار... الآن عرفت سرّ هذه المعاطف الشتويّة في هذا الهجير !!!

العتمة مغسلة كبرى وفسحة للغفران من الخطايا والكبائر. وفي العتمة انتظرت ساعات صيدا أو وحشا ينهش بعضا من ذلك اللحم المكتظّ حول هيكلها، ويخلّص نهديها من قيودهما

ويدقّ وتدا أو وتدين وينصب خيمته عند الوادي أو بين الجبلين... لكن الشارع الأسود البخيل ظلّ يضنّ عليها برجل أو نصف رجل معتوه أو شيخ منهوب العينين مهدم الفكّين.

... أخيرا قررت ترك المكان.

جرّت جُثّتها وشهوتها على رصيف الوجوه الإسمنتية. توقفت أمام واجهة زجاجية لأحد محلاّت الكوليزي... اعترضتها صورتها يتقدّمها صدر إسفنجي مستعمل ووجه إجّاصة شاحبة أسقطتها رياح عاتية وفم كالجرح الساكن بعد طول نزيف. هذا إذن الكوليزي... وهذه المقهى المَصْيدَة... هيّا أدخليها إنّها ملجأ الأمل الأخير...

مقهى الRotonde وانهيار الإيقاع.

جلسَت والعُهْرُ بعينيها تتأمّل وجوههم المقلوبة. أشعلت ونفثت خيوط غوايتها في أرجاء المقهى.

أين سأبيتُ الليلة ؟!

هكذا اهتزّ صدرها المكلوم من ليالي الأسبوع المندحر. «كل هذه الوجوه أعرفها... وكل تلك الأجسام حفظتها وحفظتني، لا أحد منهم يرغب في معاودة الدقيق الناعم، الكل مُتعب هذا الأحد، بعضهم أفرغته المتاعب والديون، وبعضهم أفرغ آخر مخازنه في فراش المسؤولية الزوجية... يا...

الكلّ مشغول بأحاديث الإرهاب. كم كرهت هذه الحروب التي دمّرت قلاعي وأجهزت على طمأنينتي... أسلحتي صارت تقليدية وأسئلتي صارت لا تعنيهم وشفتي المرتعشة ملّت انتظارها وبدأتني النهاية.

هاهو صدري ترهّل، انسحب إلى الأسفل منكسرا مثل تمثالهم الأسود.

التمثال ! هو السبب، سبب كل هذا الصقيع في هذا اليوم المُحرق، تداعى أمام أعينهم يسّاقط توقيعًا لكل خيبات الدنيا... تساقطت معه أسلحتهم بعد عمْر من الانتصاب الوهمي، اتسعت سراويلهم وترهّلت أجسامهم كأنّما أسقطها الجذام، جذام ما بين الفخذين مرعب اليوم !!!

وصل الجذام إلى الشوارب، هاهو ذلك المثقّف الذي كان يرفع قرني شاربيه «تفاحلا»... هاهو يدخل المقهى ذليلا معفّر الوجه مهزوم القامة، مهدود الكتفين، يحمل في يده كعادته جريدة «القدس العربي»... هاهو يجلس إلى جماعته نادبا أمس أوهامه الجميل... ماذا تراه يقول ؟! هل أنا التي أسقطت تمثالهم ؟ هل أنا التي نفخت في إلياتهم وفي بطونهم ؟!!

لم يعد يعجبكم هذا الإست الذي قبّلتموه كثيرا وبكيتم عليه طويلا آخر الليل ؟!»

رشقوا أعينهم في شاشة الحزن اليومي ليستمعوا إلى آخر تصريحات النسناس : لقد انتهت الحرب... أبدنا النظام... أسقطنا التمثال...

صاح جندي في فضائية أخرى : «دخلناها من مؤخرتها، قطّعنا أنسجة أم قصر ؟»

انكسرت العيون أكثر وعلت الوجوه المسائية ألوان القهوة التركيّة، وغابت آخر الشموس الخجولة لتبدأ أزمنة العتمات...

كان النادل مازال مبتسما منذ الهزيمة الأولى... منذ خمس وثلاثين عاما وجدوه في عمق الصحراء الليبيّة ظامئاً يبحث عن طريق المعركة الأخيرة... عادوا به مبتسما ابتسامة غريبة ارتسمت على وجهه وهم يُخبرونه أن الحرب التي ذهب إليها انتهت...

عندما عاد، ظلّ يجلس أمام المقهى دون أن يفقد تلك الابتسامة الغريبة... قيل إنّ صاحب المقهى علم بمصابه، أشفق عليه وشغّله نادلا، منذ سنوات وتحديدا بعد حرب الخليج طوّر النادل مهنته فأصبح يؤلّف بين القلوب الشريدة وصاحبات الابتسمات الحمراء... لم يقربني اليوم وظلّ مبتسما هناك بعيدا يراقبني ويراقب زبائن التمثال المنهار...

أفرغ أحد المتحلقين عبوة البيرة و«شقائل الكسكسي» على طاولة النقاش الأخير... مسحوا قرفهم بجريدة القدس وحملوه إلى بيت الراحة العربي... أغرقوه في ماء المراحيض وعادوا به مسلوب الألوان. دخل الآخر مخضّر الطلعة صائحا : شارون يقصف غزّة والجليل بالآف سا ز (F16)... ضحك

صاحب الشارب المهزوم ضحكة مكلومة وأسرع إلى المرحاض العظيم...

تزايدت زبائن المرحاض اليوم. والكلّ يفرغ حمولة قرن من الحمل الكاذب...

جاءني الصوت من داخلي هذه المرة مجروحا خافتا

أين سنبيت الليلة ؟!!

* * *

من يصدّق هذا الهراء ؟!!!

الجزء الثّاني

1

قصّة الجرح والمرأة التي أكلْناها في ...

قنبلة في الوجه...

ركلة أسفل البطن... وبصاق على الجثّة...

هكذا استقبلني شورّب ذات ليلة. افتك منّي الكيس البلاستيكي، أخرج منه عطايا الجلاّز. ذرّها فوق رأسي، بينما أنا أتلوّى ألما في عتبة الباب، فتح موسه البوسعادة، برقت نجومه في العتمة كاللعنة...

– توكّل فينا م الزلاّز يا ولد...

قمت أدافع عن شرف أمي، لكنّه عالجني بشطحة من موسه، نهشت خدّي نهشة كلب مسعور، تناثر دمي على الحصير المجعّد.

تركني وخرج...

كان دمي ينزف دون توقف والإغماء يوقعني وأوقعه... هل هو الموت ؟؟ هل هكذا يجب أن أموت ؟؟ بموس شورّب ووحيدا في هذه الغرفة القذرة ؟؟

ألحس دمي، مالح مثل الذلّ... مثل العار... عاودني الإغماء...

* * *

أفقت على كمّادات بولحية .فتحت عيني، وجدته يزيل بالقطنة الكحولية الدّماء التي سالت وتجمّدت حول عنقي أنهارا حمراء. كنت مسربلا مثل جواد خارج من معركة أو ربّما هارب منها...

انتبه بو لحية إلي وأنا أغادر دوختي

– نيقرو... الحمد لله ..أنت بخير ؟... لقد نجوت من الموت بأعجوبة... من فعل بك هذا ؟؟!!

– .....

– شورّب ؟؟أليس كذلك ؟؟؟!!

– .....

– هل عرف بحكاية الجلاّز ؟!

رفعت رأسي... كان يعلم هو الآخر... لكنّه لم يحدّثني في الأمر...

– نعم كنت أعلم منذ الأيام الأولى، كان يجب أن تعلم أنّه سيأتي اليوم الذي يعلم فيه الجميع ...

ماذا أقول له ؟ هل أقول له : هو الفقر ؟ أم هم إخوتي وعائلتي الذين كنت أرسل إليهم الأجرة كاملة ؟ لكنّي، منذ رحل والدي، لم أعد أرسل إليهم مليما واحدا... أمّي تزوجت وحملت معها إخوتي... منذ ذلك اليوم الذي تلقيت فيه رسالتها مزّقت صورة القرية من ذاكرتي... كانت رسالتها تحمل خبر زواجها من حمد بوفحت... منذ ذلك اليوم لم أعد أرسل غير السّخط والمقت...

– لن أسألك أين كنت تخبّئ مالك ولكن هذا ما كنت تطمح إلى جنيه منه ؟! لقد كاد يجهز عليك هذا المال اللّعين...

هكذا حدّثني بو لحية وأنا أسبح في شعور غريب، خليط من الندم والقرف والوجع... تحسّست خدّي، كان ثقيلا... قدّم لي بو لحية المرآة... ما أفظع ما اعترضني، جرح طويل مثل الساق مشدود بالخيط الأسود مثلما يشدّ «العصبان»...

– لقد وجدتك تلعق دماءك، كدت تموت يا نيقرو لولا رجوعي...

– هل أنت من خاط لي الجرح ؟؟!!

– لا طبعا... استدعيت صديقا من كلية الطب ، هو الذي خاط لك الجرح...

– لماذا لم تحملني إلى المستشفى ؟!!

– كان الأمر تطوّر .. خشيت الشرطة.. وقد ندخل السجن جميعا... لم أفكر ساعتها إلا في إنقاذك

– ....

– ثم... أنا... أنت... يمكنك أن تذهب إلى المستشفى إن أردت... صديقي أيضا على أبواب تخرج وسيصبح جرّاحا... لم أجلب لك حلاّقا...

غضب بو لحية... كان يحسب أني ألومه، لم أقصد ذلك .. فقط كنت أسأل... تحسست الجرح... هكذا كان فرج أمّي إذن... كان شورّب يهددنا بفتحة في خدّ كل منّا تذكره بفرج أمّه... أمّي التي كانت... أمي... يصبح جرحها في وجهي..

آه من هذا الجرح !!!!!

كم أصبحت وسيما أيها النيقرو الطيب !!! كيف ستعيش بعد الآن ؟ كيف ستمشي بين الناس ؟ ستصبح «شبهة»، متروكا... مذموما... كالملعون، كالناقة الجرباء، كالمجذوم، لن يقربك أحد، الرجال والنساء على حد السواء... النساء ؟!!

لم تخطر ببالي قبل الآن ! لماذا لم أفكّر فيهن قبل الآن؟!.. النساء !! أهما الجوع والفقر قد أنسياني ؟ وما الذي ذكّرني الآن ؟ الجرح ؟ الفرج ؟ وجهي ؟!

– ستذهب معي (قال بو لحية)

– إلى أين ؟!!

– سنقيم عند شخص أعرفه، عنده مسكن صغير .

– لن أغادر هذا الجحر قبل أن أفتح له في وجهه فرجا أكثر انفراجا من فرج أمه القحبة ليذكّره بسيرة عائلته قاطبة .

– نيقرو . لم تخلق لهذا ...تعقّل !

– لماذا لم يتعقّل هو عندما علّمني في وجهي ؟

– لأنّك أشرف منه .تعقّل.

– أيّ شرف وفرج أم...

– دعك من هذا الهراء يا نيقرو... سيلتئم الجرح وتنسى...

– بعض الجروح لا تندمل أبدا يا صديقي. تبقى محفورة في القلب، وفي الذاكرة.

– ها قد أصبحت فيلسوفا يا أيها الأسمر الطيب.

– الجروح تنطق الجرحى بالبيان في معاركهم الأخيرة وشورّب معركتي الأخيرة .

– أتركه لله سيتكفل به، هيا لقد جمعت أغراضي وأغراضك،

قم لنذهب إلى بيتنا الجديد. سيكون رائعا، كلّه كتب، ستشبع بالحكايا يا شهريار...

أردت أن أبتسم، طعنني الجرح، تألّمت، ها قد بدأ يسرق فرحتي. لقد سرق وجهي إلى الأبد...

– لا تحمل شيئا (قال بو لحية) سأحمل أنا الحقيبتين، أشرت له : الصورة بقيت على الحائط ؟!! ابتسم بو لحية، صعد فوق صندوق شورّب الصدئ، نزع اللوحة، مددت يدي لأمسكها، –احملها إنّها خفيفة.

نظرت إليها من قرب. تأملت في عينيه الحالمتين، كانت الصورة بالأحمر والأسود...

– سأقصّ عليك قصتها عندما نستقر في بيتنا الجديد، لف رأسك في هذا الشال.

أخذتني عندها فرحة عارمة ألهتني عن جرحي لوقت، انطلقت إلى الشارع أعانق الصورة الحكاية بعد أن لفّها بو لحية في جريدة قديمة ...

متى ستصبحين ملكي ؟؟!!

متى أيّتها الحكاية ؟!!!

* * *

في الطريق حدّثني بو لحية عن عبد الله أوجلان زعيم الأكراد المعتقل في تركيا وقرأ علي ما كتبه عنه اليوسفي، كانت صورته في الجريدة التي لفّ بها اللوحة... كنت مشغولا

بالصورة الحكاية وكان يحدّثني عن صورة الجريدة، تحوّل ذهني إلى شورّب، هل سأتركه بهذه السهولة ينجو بفعلته ؟!!

* * *

الحافلة تئنّ... تتلوّى بين الشوارع والأنهج الضيّقة تبتعد عن بيت الجرح... مازال خدّي ثقيلا كالنائم. الحافلة على غير العادة لا تحمل إلا عشرة ركّاب... قمت بعدّهم : تسعة رجال وامرأة، كانوا يحدقون فيها ما عدا واحداً تكفّل بمراقبتي، بدأت قصصك يا وجهي، بدأت تنتج زبائنك يا جرحي، كنت ألفّ رأسي في الشال الفلسطيني الذي قدّمه لي بو لحية... التفت إليه، غارقا في كتابه كالعادة، لا أدري متى توقف عن حديثه عن أوجلان. لأوّل مرّة لا أنتبه لحكايته... هل سيغضب ؟ قد لا يحكي لي شيئا بعد اليوم... هو الجرح... هو شورّب السبب...آه... التفت الجميع... ابتسم لهم بو لحية... عادوا يلتهمون المرأة، أمّا مراقبي فهو بعدُ يسترق النظر إلي في صمت. ماذا يريد منّي ؟ هل يعرفني؟!! لعلّه مخنّث ! أو أحمق، لا يركب الحافلات في مثل هذه الساعة من الليل إلا المعتوه والمخنّث والسارق وآخر المتسولين... لا يهم... سأتسلّى مع الجميع بلعبة المرأة فالبيت على ما يبدو بعيد. كانت سمراء ممتلئة الخدّين والزندين، مترهّلة النهدين، شعرها أصفر فاقع مثل العصير المغشوش بالشوارع الأصيلة. فستانها قصير، ركبتاها تطلان في بؤس وساقاها موشّاتان بعشرات البقع السوداء، فمها كبير لا يشبه شيئا، ربّما يشبه جرحي أو... ملطّخ بالأحمر... لو كان الحقير شورّب معنا لوصفها بتشبيهه الشهير : «كالكلب

الغاطس في جيفة» الحقير، إنه الجيفة نفسها... بو لحية تجري به الفلك في ملكوت الحرف...

– لماذا يحلقون فيها هكذا ؟ إنها قبيحة (أشرت برأسي إلى المرأة)

– إنه الليل (ردّ بو لحية)

– ما به الليل ؟

– تكثر فيه الشهوات وتقل فيه الألوان .

– لم أفهم !

– أقصد يقل فيه العرض ويكثر الطلب، إنها تجارة لا تنشط إلا في الليل .

– لكنّها بشعة ...بشعة ...بش..

ابتسم بو لحية وعاد إلى كتابه. كانت المرأة تخصّه بنظراتها من دوننا الثمانية... لم تكن تنظر إلى سواه... بينما كان يعهر مع كتابه ..ألا يشتهيها مثل هؤلاء ؟!!و هل أشت...!!!

!!

!!!!!

!!!!!!

!!!!!!!!!

!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

!!

أنا لا أقوى على تغيير وجهي... عيناي... لا تطاوعانني... هل سحرتني هذه اللعينة..؟؟؟ إني أفكر فيها بشدّة... من أين تراها تأتي ؟ وإلى أين تذهب في هذا الليل ؟ هل تلاحق موعدا ؟ هل هي أجمل في الفراش ؟ يقول بو لحية أن

القبيحات يتفتّح جمالهن بشكل أسطوري يجعل عشاقهن لا يرون غيرهن... وجهها لم يعد قبيحا كما كنت أراه منذ دقائق... عيناها برقتا فجأة... عيناها تنزّان شبقا... أجمل ما فيها عيناها... نهداها يؤكدان أنّها متمرسة، محترفة لا تتعب زائرها بحرقة البدايات التي قد تجهز على شحنته، هي جاهزة دائما... مؤخّرتها الفسيحة تبدو كالإسفنجة العملاقة تكفي عشرة رجال... البقع السوداء لم تكن بذلك القبح الذي وصفته... هل هي آثار إطفاء سجائر بعض الشاذين الذين كانت تتورّط معهم... مسكينة... مسكينة ؟!! ماذا أقول هل أشفقت عليها ؟ ولماذا لا أشفق عليها ؟ إنها وحيدة مثلي وربّما جرحها أعمق من جرحي...

مازالت الحافلة تأكل الظلام ونحن نأكل المرأة التي كانت تأكل بو لحية الذي كان يأكل كتابه.

لم يعد الرجل الذي كان يلاحقني بنظراته موجودا... هل نزل في محطة ما؟؟ لقد أراحني... كلّنا الآن رجال نأكل امرأة... ولكن ماذا كان يأكل بو لحية ؟!! لماذا لا يشاركنا أكلنا ؟ ليس من الصداقة في شيء أن آكل وصديقي جائع. هل كان يأكل امرأة في كتابه ؟!! لا يشدّ القارئ إلى كتاب إلا امرأة فاتنة يرمي بها الكاتب بين يديه فتأسره حتّى السطور الأخيرة... إذن لم تكن بريئا يا بو لحية !

– هل هي جميلة ؟!!

– من ؟!!

– امرأتك.

– امرأتي ؟!!!!!!!!
– التي تأكل، أقصد التي تأكل حكايتها !
– أنا لا أقرأ حكاية امرأة.

هكذا ردّ بو لحية وعاد إلى كتابه الآسر..... يا خيبتك يا بو لحية لو كنت تأكل رجلا. لا أنت لست منهم... أنت لم تقصد ما قلت... عرفتك فحلا... ولا أحسب أنّك تكون...
– بو لحية متى نصل ؟
– قريبا.
– بعد ساعة ؟!!
– .....

دائما ينهرني بصمته... يمزقني سكوته... أكره فيه هذا التصرّف... إنّه متعال... من يحسب نفسه ؟ فلتذهب المعرفة إلى الجحيم... سأنزل من هذه الحافلة وأهيم على وجهي... وجهي ؟!! آه يا وجهي! .. وجهي ؟!! لقد سرقت وجهي أيّها اللعين... شورّب... لا بدّ أن أهشّم رأسك يوما...

* * *

خلت الحافلة من المسافرين... لم يبق بها غيرنا : أنا وبولحية والمرأة... نظرت إلي هذه المرّة... ما أجملها !!!! الآن سيحلو السفر... صوّبت نحوها ملعقتي وشوكتي وانهمكت في التهامها بشهية خرافية، طعمها يتبدّل مع كل لقمة، ساعة بطعم الشّواء الساخن وساعة بنكهة التفاح وأخرى برائحة البطيخ... للذّة ألوان وروائح... للذّة أمواج... للذّة طوفان...

أشارت إلى المقعد الخالي بجانبها... تدعوني...

بو لحية يتمرّغ بين السطور...

تركته وقمت عندها... الإقامة هنا دافئة... ذهب الصقيع... بدأ الدفء... الحمّى... الهجير... اللهيب... الحريق...

عدّلت الشال على رأسي أحجب به جرحي ..

– البرد شديد الليلة على غير العادة (همست)

ماذا تقصد ؟! بماذا أجيب ؟ هل يجب أن أجيب ؟ كنت أفضّل عدم الكلام. الكلام يفسد المشاعر... الكلام يسرق اللذّة من مكمنها، للطقس سلطانه، لكن...

– هل تركبين الحافلة كل ليلة ؟ (انطلق اللسان)

– طبعا... كل ليلة...

فخورة بنفسها، مثابرة كأنّها تتحدّث عن مواعيد الصلاة... البقع السوداء لم أعد أراها على ساقيها ربّما لأني لم أعد أرى ساقيها، أنا الآن أشرف على الركبتين.

ندمت

مكاني إلى جانب بو لحية أحسن كنت آكل ساقيها بسهولة... نهداها ساكنان في استرخاء دون حاملات صدر... ربّما هذا الذي جعلك تبردين...

– هل هي المرّة الأولى ؟ (قالت)

ماذا تقصد ؟ بماذا سأجيب الآن ؟ بـ..كلمة «لا»... هي «لا» تبعد البلاء... بو لحية قال لي يوما إن البلاء كل البلاء في تلك «اللا» ولكني مجبر على قولها...

- لا
- كم مرّة ؟

العرق طوفان... وأسئلتها بنزين مشتعل... ماذا يجب أن يفعل رجل تحدّثه امرأة في آخر الليل عن البرد بهذا الشكل ؟!!!

يدي لا تطاوعني على الزحف... يدي مشلولة، شلّتها كلماتها، تحرّكي أيتها اليد العاهر، نحن وحدنا، بو لحية غارق في كتابه المجهول والسائق يصارع النعاس والطريق. ما بك جامدة ؟ .. أنت لست قادرة على حمايتي من موس شورّب... ولا أنت بقادرة على أن تلبي دعوة مومس ملتهبة... رجولة الرجل في يده... يجب أن تزحفي... يكفي هذا... سأقطعك إن لم تفعلي، سأرميك لقطط المزابل... هذا أمر لن أقبله... ازحفي... ازحفي... هكذا... از.....

- أرجوك ! ارفع يدك (قالت غاضبة)

عادت إليّ يدي اللعينة خائبة... أكلت خجلي بصمتي تهاطل عرقي البارد مرّا... فتحت حقيبتها.. تجمّد الدم في عروقي...

هل ستستل موسها هي الأخرى لتعلّمني مثل شورّب ؟!!

... ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

كتاااااااااااااااااب!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

فتحته وغطست... لم أعد أرى وجهها... حتّى ركبتيها ما عادتا تعجبانني... نهداها خبزتا شعير... تطالع كتابا ؟!!!! وبو لحية يقابلها بكتابه... تبّا... مكتبة العطّارين !!!

تفوووووووووووووووووووووووووووووووووه

فتحت كتاب البرد والقلق ... لماذا دعتني لأجلس بجانبها ؟! لقد أرادت أن تستميل بو لحية وتثيره... قنطرة... يا خيبتك يا نيقرو... قنطرة ؟!! فهمت ذلك متأخرا... تبّا لها وله وللكتب...

جرحي «يسطّر» وخدّي مثل الطبل يقرع ألمه، قمت، تجوّلت في الحافلة، المكتبة، خالية، فتحت النافذة، لم يعد البرد يعني شيئا، فبداخلي بركان من الحمّى، بركان من الحمم...

توقفت الحافلة في محطّة ما، ناداني بو لحية «هيّا انزل» قفزنا خارج الحافلة التي تابعت ركضها مثل بغلة مدبورة... التفت إلى صاحبة الركبتين، يبدو أنها فوجئت بنزولنا... قامت تتابع بو لحية الذي لم يبال بألاعيبها وخططها... قلت لها بنظراتي الشامتة : لم تعجبك يدي فليأكل البرد جرحك إذن.

صراحة، كنت خجولا من نفسي ومن اللوحة الحكاية التي كنت أحملها... أدخل بو لحية كتابه في جيبه رفع الحقيبتين وانطلق يجسّ الطريق... أشياء أخرى في داخلي أشعر أن موسى شورّب قد خرّبها مع وجهي...

هل من هنا يجدر بي أن أبدأ كتابة سيرتي ؟

2

حديث «العنبرية»

قال الثّابته :

السلطان... يشدّ شعره الأصفر الطويل ذيل حصان... وشم الثعبان المخيف يطل من تحت القميص الضيّق الذي عقد طرفيه فوق صرّته وطوى كمّيه لتظهر تضاريس عضلاته المفتولة تحزّمها عروق خضراء ناتئة، بينما تكشف فتحة القميص صدرا رياضيا أمرد يزيّنه خيط أسود سميك يتدلى منه رأس فرعون وصليب معقّف. وجهه طويل يشبه وجه جمل وشفتاه الغليظتان تجعلانه وحشا آدميا أشقر...

كان يغادر بيت مريم «العشرى» حين اعترضه زوجها المولدي «اللاّيث» الذي تسحّب يدخل البيت تتجاذبه أحاسيس الغضب والخوف والهوان بينما ظلّت مريم بقميص نومها القصير تودّع عشيقها السلطان وهي تداعب رأس الأسد الصغير في سلسلة الذهب الدقيقة على صدرها الضخم.

لم يكن المولدي اللايث هو الوحيد الذي يقتحم «السلطان» بيته في غيابه فحكاية السلطان مع نساء الحيّ

أصبحت معلومة للجميع وحقيقة مثل الليل والنهار. و لم يعد أحد قادرا على الحديث في ذلك فالورم قد اكتسح الجميع والعار كالجذام تفشى في كل البيوت ...كل الرجال تراهم قد أصابهم الهزال من فرط ما عانوه من هوان وذلّ. بدأت القصّة منذ أن تحدّثت فاطمة مع نساء الحي عن ليلتها المشهودة مع الغريب الذي أطفأ لهيب أربعين عاما من الانتظار والاختزان والاشتهاء، منذ تلك الجلسة في «حمام بو ثور» أصبح الرجل حلم النساء جميعا. كنّ يقمن في شرفات المنازل وفي نوافذ البيوت في انتظار عودته آخر الليل إلى بيته الذي يسكنه مع شابين : واحد منهما أسمر يميل إلى زنوجة مع سذاجة وآخر أبيض يربّي لحية أنيقة ويتأبطّ طول الوقت كتبا ومجلاّت... كانت النساء قد حفظن صوت خطوات السلطان ورنّة حذاء رعاة البقر الذي ينتعله، فيعرضن عليه ما لذّ وطاب من غلالهن ليقلّب العطايا بعينيه ويمرّ متمنّعا...

هندة، الطالبة بمعهد الصحافة وعلوم الأخبار، صاحبة أكبر مؤخّرة في تاريخ الصحافة التونسية، هي التي حالفها الحظّ ليلتها فقد وقفت أمامه في قميص النوم شبه عارية.

– أففف

لا بأس ...لا بأس، لما وصل شورّب أو السلطان أمامها صاحت وارتمت بين يديه ...

– هذه «واسعة عاد» يا الثابته (قال بو دبرة مكذّبا)

قام الثابته من على الكرسي ورمى بخرطوم النارجيلة قائلا:

لا يمكنني أن أستمر في الحكي ما دام معكم هذا المعتوه الذي لا يعجبه العجب...

نهض الجميع يتوسّلون إلى الثابته أن يستمرّ، بينما نهر البعض الآخر بو دبرة وهدّدوه بالضرب إن قاطع من جديد.

(حمزة الثابته كذّاب كبير، لكنّ روّاد المقهى لا يطيقون غيابه. ولا يملّ مجالسته أحد. الطاولة التي يجلس إليها تجذب كل الكراسي، وحين يمسك الثابته خرطوم الشيشة ويسحب ثلاثة أنفاس متتالية من المعسّل «المجورك» تكبر حوله حلقة المستمعين والمشاهدين.

يحمل الثابته في جرابه كل صباح إثنين حكايات جديدة وحكاياته كلّها مثيرة. أطلق أحد المثقفين على جلساته «حديث الصباح عن فرجة المساء» كل من يشارك في الحلقة يعلم أنّ ما يقوله الثابته فيه من الخيال ما فيه من الحقيقة لكنّ كذبه كان جميلا وكلامه عذبا وساحرا، ربّما لأن الرجل يطلّ عليهم كل صباح اثنين من عالم طالما اشرأبّت أعناقهم نحوه.

أبطال قصصه أصبحوا مشهورين في المقهى، وبعض المستمعين يواصلون إثراء تلك القصص بمتابعاتهم الشخصية، لطفي بو دبرة مثلا يقضي الليل أمام المبيت ينتظر عودة الطالبات، طالبات الهوى كما يقول، لعلّه يفوز بحكاية.

كان الثابته لا يحبّه وأشعره بذلك أكثر من مرّة فهو كثيرا ما يقاطعه ليعارض أو ليؤيّد، وكان ذلك يغضب الثابته فيهدد

بقطع الحديث فلا يجني بو دبرة إلا التّوبيخ من الحاضرين، هم لا يرضون إلا بالثابته راويا، زد على ذلك أن بو دبرة لا يمتلك تلك الأساليب التي تفنّن الثابته في نحتها منذ سنوات، كان قصّاصا محترفا يجيد فنّ التشويق ويعرف متى يطنب ومتى يوجز في سرد الأحداث، أمّا بو دبرة فحكيه فظّ لا طعم له ولا رائحة، يأتي الحدث من ذيله... وذلك يقلق الجميع و«يحرق» القصّة كما يقول الثابته).

هاهو الثابته يُعاد إلى الحلقة وها قد جُدّدت الولعة فوق شيشة التفّاح لتفوح معها رائحة القصّة من جديد...

– أين قطعت حديثي يا جماعة ؟

–عند هندة (قال أحدهم)

–لا عند معهد الصحافة (قال الآخر)

–لا ...عند «شبه عارية» أنا متأكّد

«احتضنها جمرة مشتعلة شبقا (قال الثابته متابعا)، كان نور القمر المنعكس على جسدها المبلّل بعرق الشهوة يجعل تلك الليلة تزداد احمرارا... قالت هندة للنساء في الحمّام إنّها لم تصبر حتّى يصعدا إلى البيت فقضمت بأسنانها كتفه ومرّغت خدّيها على صدره، وكم كانت سعادتها لا توصف حين أحست بتلك الشفاه الغليظة، شفاه الجمل، تطبع أولى قبلاتها على رقبتها والنفس الملتهب يتسلّل بينها عابثا بزغب الظهر فاطمأنّت أنّه لها وأن الليلة ليلتها وحدها...

قاطعت حكيها سالمة طالبة الشريعة وأصول الدين غاضبة [يسمّونها سالمة المسبوعة] :
– أنت قذرة وغير شريفة.

جرشت هندة شيأها وأجابتها متحدّية ساخرة :
– تركت لك الشرف والطرق الشريفة، «انزلي ع الحلبة راكي ياسر ضعيفة».

أخفت سالمة نهديها الشاحبين بكفّيها وابتعدت تلوك مؤخرتها المنقبضة فانفجرت الطالبات ضاحكات [كانت كل متعتي في مراقبة مؤخرات الطالبات، يمكنك أن تكتشف شخصيّة الواحدة من مؤخرتها، المومس، مثلا، لا تترهّل أردافها أبدا، هذه خبرات أخرى سأفيدكم بها في وقت لاحق مع شيشة أخرى].

عادت هندة تحكي لهن وقائع ليلتها :

كم كنت فخورة بعذريّتي وبذلك الجدار الذي أحسّه يقيني ويشعرني بالأمان فأطرقه كالمعبد كل ليلة لأطمئن وأنام حالمة بفارس يأتيني على نفس الحصان الأبيض الذي تحلمن به ليحملني وراءه ويشقّ بي السحاب... ولكن بعد أن فجّر ذلك الجدار شعرت إني كنت سجينته وأنه كان يضرب حولي حصارا يحول دوني ولذّة عظيمة تهزّني من أطراف أصابعي إلى أعلى شعيرات رأسي. والآن وبعد أن غزا مجاهلي وقلّم أشواكي وحلّ عقدي وهدّ ذلك السور على زيفه وحطّم معابد الوهم أشعر أن

حريتي اكتملت وأن بورقيبة فاتته هذه الحقوق..... لذلك سمّيته الفاتح.

هكذا هي هندة كانت تسمّي عشيقها باسم جديد كلّما كانت لها معه ليلة جديدة فهو هرقل والديناصور وسبارتكيس وغيفارا وكلكامش وحمزة.....

كانت تحكّ ظهر زميلتها لبنى في «دوش» المبيت الجامعي حين سألتها صاحبتها عن ليلة السبت فأجابتها متنهّدة :

– لقد قضّيتها معه.

– من ؟!!!

– الديناصور.

قهقهت لبنى : الديناصور ؟!! لكن الديناصور انقرض !!

– من أجل ذلك أسمّيه ديناصورا لأنّه عظيم وفريد والأجمل من ذلك كلّه أنّه لا يفكّر ولا يحزن مثل الرجال الذين نعرف.

– أخشى أن تسمّيه المرّة القادمة وحيد القرن أو التنين !

– كيف لم أفكر في هذا ؟؟ إنه بالفعل وحيد هذا القرن وبالفعل ينفث من بين شفتيه العظيمتين اللذيذتين وهجا كلهيب التنين يحوّلني إلى قطعة من جهنّم.

– ستدخلينها بإذن الله، لا تستعجلي (قالت لبنى ساخرة)

– ليس مهما... ذلك في علم الغيب... ونحن في علم الدنيا والدنيا دنياه، دنيا الديناصور... وهل سيضمن لك جدار برلين الذي تحملينه دخول الجنّة... الجنّة قد دخلتها في الدنيا عندما

حطّمت جدار الأسر، حتّى جدار برلين هدّموه وربّما لحقه ما تبقّى من سور الصّين قريبا... الجدران تحبسنا ونظنّ أنها تحمينا...

– لقد جعلك الديناصور فيلسوفة...

– لو عرفت مؤخرتك سيفه لنطقت بالوحي يا عقدة العقد.

– اللطف علي... اتركيني معقّدة ومتخلّفة بجداري، إنّه كلّ ما أملك، فلا جاه لي ولا مال.

– بئس ما امتلكت، إنّه الوهم.

– وأيّ رجل سيرضى بك وأنت أوتوروت ؟!!!

– ألم أقل لك إنّك متخلّفة، هل تفضّلين المسالك الوعرة على الطرق السريعة، الرجال يريدون الطرق المعبّدة.

– في المسالك الوعرة آهات ولذائذ حرمت نفسك منها.

– غرزة واحدة وتعود طرقي إلى وعورتها الأولى والرجال الحمقى بعدد حبّات الرمل، ثمّ ماذا أفعل برجل وأنا في حضن ديناصور ؟؟!!

قالت ذلك وهي ترمي بكفها إلى دغل صاحبتها التي صاحت تلذّذا... تعانقا وتعالقا كحيّتين ركبهما الشيطان ولم أعد أسمع إلا دقات قلبي المتسارعة فخفت أن يفتضح أمري.»

قال سليم النادل للثابته الذي عاد إلى خرطوم الشيشة بينما الخلق من حوله يسيل لعابهم على جوانب الحكاية : «أنت والله شيطان، ألا تخشى أن تباغتك مديرة المبيت وأنت تتنصّت على الطالبات وتسترق النظر إلى حمّاماتهن ؟»

– لا تخف عليّ فأنا «الثابته» أما المديرة فلها عندنا حكاية أخرى قد أرويها لكم في وقت آخر...

– بئس الحارس أنت، شيطان، إبليس !

– ربّما، لكنّي أعلم أنّك لست ملاكا، هل تريد أن أحكي لهم حكايتك ؟!!!!!!

احمرّ وجه النادل وصاح في الثابته : أي حكاية أيها الكاذب ؟

ملأت المقهى قهقهات المتحلّقين وأخذت الكراسي تتراجع لتأخذ أماكنها الطبيعية في انتظار يوم الاثنين القادم.

منذ مدّة أصبحتُ واحدا من جمهور الثابته الذي ينتظره كل اثنين بشغف كبير، كنت أريد أن أعرف مزيدا عن هذا الرجل الذي يشبه شورّب إلى حدّ كبير، كل القرائن تقول إنه هو شورّب وأنا الأسمر الغامق وبولحية هو صاحب اللحية الذي يتأبّط الكتب ...

3
فيما
حصل
لعصافير شارع الشوارع وقصّة لقائي بالنيقرو

يأكلني حزن الأحزان .

الشمس تعثّرت في ثوبها وسقطت وراء إحدى الغيمات البعيدة، والقمر المخمور لم يظهر هذا المساء، البارحة سهر وعربد حتّى الصباح مع روّاد دار الصحفي والروتوند وبارات الدنيا والآخرة، النجوم، هذه الليلة، كنساء الرصيف يلسع عريها برد النوايا .جثّة القرية التي حملتها معي ذات فجر مغرور ووعدتها بالثأر من الجاني، تحلّلت على ظهري وريحها أصبحت أشمّها بوضوح.

الحانة كعادتها تقذف أحشاءها والمدينة مازالت مدانة وأنا في عزلتي أتدلّى مثل الفانوس المحروق في سقف الذاكرة المعتوهة.

كنت أشرف على الشارع العجوز : شارع الشوارع الذي أكلته عمليات الترميم والتجميل. طردوا بائعي الورود وبطاقات الحب واقتلعوا أكشاك الجرائد، ذبّحوا الأشجار ودمّروا البلاط وشدّوا خدّي الشارع فانفتح فمه المقرف الأبخر، وفرّ ما تبقّى من

عصافيره القديمة بزقّها وزقزقتها. رحلت تلك العصافير إلى شرفات العمارات المحيطة بالمكان، وراحت تنوح كل الوقت على أعشاشها التي بعثرتها الصقور وصغارها التي أكلتها الثعالب. سمعت أنّهم قرّروا غرس أشجار الخرّوب على جوانب الشارع وفي مواضع باعة الورود المدحورين.

تذكّرت قريتي التي أكلها الغول وخرّوبتنا التي خرّبتنا.

* * *

في أحد الصباحات المؤلمة، فتحت شرفة الشقة؛ شقّة صديقي الذي صدمته سيارة فترك لي مفتاح شقّته حتى يعود من رقاده بالمستشفى، كنت أتمنّى أن يبقى أكثر وكنت كلّما زرته ولاحظت عليه تحسّنا عدت مهموما لأنّ الإقامة في ذلك النعيم قد بدأت تتآكل. في الحقيقة كنت مغرما بذلك العلوّ وتلك الشقة التي أطلّ منها على خراب نفسي وعلى ابن خلدون الأخضر وقد تعفّر وجهه بغبار الغباء .....

منذ مدّة لم أعد أزور صديقي صاحب الشقة حتّى لا أغتمّ بتحسّن صحّته وتركت أمري للأقدار خاصة أنّني لم أخبره أنّي أسكن شقته مع النيقرو .

في ذلك الصباح المؤلم، فتحت الشرفة، وجدت عشرات العصافير قتيلة البرد ... «البرد شديد هذا العام». كان بعض العصافير يخطّ وصاياه الأخيرة، كانت العصافير تحرّك أجنحتها

بصعوبة. حملتها إلى الداخل، أضرمت النار في كتب «البيئة» التي سرقها لي صديقي المعتوه من عمله بأحد المنتزهات الوطنية وأهدانيها في عيد ميلادي، وأذكر أنه قال لي ساخرا : «لم أجد ما أسرق وأجرتي لا مطمع فيها... كدت أسرق لك حاوية قمامة أنيقة تليق بقصصك التي تكتبها منذ سنين، لكنّي خفت غضبك أمام ضيوفك...» الغبيّ كان يظنّ أنّه سيجد بيتي مكتظّا بالمهنّئين، نسي الأحمق أنّي أعيش في شبه عزلة مع رجل فقد وجهه وفقد الرغبة في الحياة فسقط أسير الكتب، نسي الغبي أنّه الملعون الوحيد الذي يفسد صفاء تلك العزلة الرائعة مع النيقرو والعلاّمة الذي يحدث أحيانا أن يترك الشارع في آخر الليل ليشاركنا بعض أحزاننا.

لم تشتعل تلك الكتب إلاّ بعد نفخ شديد... وحين جهّزت نار الحياة كانت العصافير قد وقّعت حركة الوداع الأخير.

عدت إلى الشرفة...

تذكّرت يوم افتتاح الشارع بعد التهيئة، شهور طويلة من الترميم والحصار والغبار، قمت صباحا على مشهد مروّع. كان الزحام شديدا حول الشارع الأسود، نزلت مسرعا، دفعت الخلق الكثير، شبّان في حالات ذهول وصبايا باكيات، حين وصلت إلى الصفّ الأمامي، أصابني الهلع نفسه من هول المشهد، كان الشارع مكسوّا بالعصافير الميتة، أكداس فوق بعض من اللحم الصغير ....

انتحار جماعي
صرخة احتجاج
العصافير عبّرت عن رفضها...

هكذا كانت تصلني تعليقات الحاضرين... وأنا سابح في ذهولي... انتبهوا لنا... جاؤوا بعصيّهم وكلابهم وانهالوا علينا ساخطين... تفرّقنا... وظللنا نراقبهم من خلف الشقوق، جاؤوا بعربات البلدية وراح «العمال الخضر» يجرفون برفوشهم جثث العصافير ويعبّئون شاحناتهم وجرّاراتهم... جاؤوا بصهاريج الماء، غسلوا الشارع بالروائح الكيميائية لكنّ رائحة الجريمة ظلّت عالقة بأنوفنا جميعا إلى اليوم. جاءت عربات الشعارات، تسلّق الخفافيش الأشجار المذبوحة وأعمدة الكهرباء والهاتف وشنقوا الفضاء بالأكفان، وأقاموا المهرجان.

لكن مشهد موج الجثث ظل عالقا بأذهاننا، سمّيت الشارع بالشارع الأسود وبقيت حقيقة الحادثة مجهولة فهل نصدّق الشاعر الذي قال : «انتحرت العصافير» ؟ أم نصدّق ذلك الرجل الأسمر الذي وقف محلّلا : «هي حملة إبادة قامت بها البلدية، كان يخشى أن تزفّ العصافير برزّها الأبيض الحاضرين يوم التدشين؛ عصافير هذه البلاد وقحة أحيانا».

* * *

لا بدّ أنّ النيقرو غادر باكرا هذا الصباح، لا أدري أين يذهب هذا الكائن الورقي الغريب منذ أن حمل وسام شورّب

على خدّه الأيمن لم أعد أفهمه، منذ تلك الليلة المشؤومة دخل في حالة من الصمت المخيف و لم ينفع معه تغيير المسكن والإقامة في قلب العاصمة، يخرج باكرا ولا يعود إلا مساء يأكل فحل بصل أو يقلي بيضة في الزيت وينغمس في كتب نُور التي تركها لنا والشقة غنيمة وسكن المستشفى.

كم يضحكني هذا الرجل الغريب بسذاجته ! لا يمكن أن أنسى تلك الليلة التي ضحكت فيها حتّى لم أعد أتحمّل أوجاع بطني، ليلتها زارنا الشقي ابن الحجّاج، قال إنّه ينوي السفر إلى الجنوب، قال «نداء القلم لا يقاوم، تهون أمامه كل المصاعب وتركب لأجله كل المخاطر بما فيها «لواجات» الموت...

كان النيقرو يتابع ابن الحجّاج بإعجاب شديد، وعندما تركنا ابن الحجاج ونزل يبحث عن قواريره الخضر التفت إلي النيقرو متعجّبا : قليلة هي الضمائر والأقلام الجادة في عالم الكتابة اليوم.

– ماذا تعني ؟

– صاحبك الذي سيشقّ البوادي والصحارى من أجل القلم، هل ما زال في الدنيا من يؤمن بالكتابة بهذه القدسية.

آهههههههههههههههههه... آهـ.. هـ.. هه !!!

ضحكت ليلتها حتّى كاد يغمى علي، كان النيقرو المسكين قد أخذ كلام ابن الحجاج على ظاهره... بدأ صاحبنا يتذمّر من ضحكي المجنون، ثم نهض غاضبا وترك البيت. بعد

مدة نزلت أبحث عنه،كنت أعلم أنه لا يعرف في هذه المدينة الموبوءة غيري، وجدته بجانب السلّم يتقافز خدّه حنقا، طلبت منه أن يعود إلى البيت فرفض وهدّدني أن يفعل بي ما فعله به شورّب. كنت أعلم أنّه لا يقوى على قتل ذبابة لذلك مكثت بجانبه حتى هدأ وعدت به إلى الشقة.

قلت له إن ما سمعه ليس صحيحا وإنّ القلم الذي كان يتحدّث عنه ابن الحجّاج هو قلم ما بين فخذيه وذلك هو صاحب الواجب وصاحب النداء والمسؤولية لذلك سمّيته ابن الحجّاج... كان لا يمسك بالقلم إلا ليدوّن أو يؤرّخ لما خطّه قلمه النصراني كما يسمّيه، سمّاه نصرانيا لأنّه لم يختن كبقيّة المسلمين، وكان يتباهى في جلساته الماجنة بأنّه يحمل أغرب أير في ديار الإسلام، وينتفخ غرورا عندما يتذكّر أنّ مثل ذلك الأير كان لبونابرت وهتلر وموسوليني وريغن وتشي غيفارا ورامبو ودون كيشوت... كان يقول دائما : إنّ الذكاء، كلّ الذكاء والقوّة والحظّ في تلك الجلدة الصغيرة التي يقطعها الطهّار، فذلك الألم الذي نشعر به ونحن صغار يجعل نموّنا يتّخذ وجهة أخرى.

كنّا دائما نستمع إلى كلامه الغريب بمتعة كبيرة كأنّما يخاطب فينا لاوعينا المرفوض.

«ماذا تنتظرون من رجل سرقوا لذّته التي بدأ يكتشفها، لذّته الأولى، لذّة اللعب ! تلك أول لعبة يكتشفها الطفل ولا يتسوّل ثمنها من والديه. أنتم للأسف تدخلون الحياة بنقصان،

نهبوكم وأنتم صغار فتعوّدتم على تحويل الذلّ إلى شحم أرداف».

كان ابن الحجّاج كلّما سكر ينزل سرواله ويغرق أيره في الخمرة أمام الجميع، كان يتوجّه إليه بالحديث قائلا :

«اشرب فأنت نصراني ولا حرج على أهل الكتاب».

وعندما شاعت حكاياته ووصلت إلى طالبات المدارس والجامعات أخذت قصصه الشبقيّة المنشورة على صفحات جرائد سرّية والمهورة باسم «صاحب القلمين» تهرّب داخل المبيتات الجامعية وداخل سجن النساء ومصانع الزربية...

مرّ على ذلك وقت طويل وهو إلى اليوم يتقاضى مقابلها أموالا طائلة وله في كلّ مجتمع نسائي سفير للهوى وللمتعة المحرّمة وهو الذي يجمع له مقابل النسخ التي توزّع هناك.

كم أنت طيّب أيها النيقرو ! مازلت بريش البداوة وحمقها.

* * *

عرفت النيقرو منذ شهور في إحدى الحدائق العامة كان يجلس إلى مقعد إسمنتي يقلّب أوراقا ثبوتية وصورا قديمة عندما هبّت ريح طارت بأوراقه فساعدته على جمعها وانطلق بيننا حديث بدأه قائلا : هل أنت من هنا ؟

أجبته يومها : كلّنا من هنا.

نظر إلى السماء وقال : بل قل «كلّنا هنا، في الريح».

وجدت وصفه لحالتنا أعمق من وصفي، سألته عن أحواله ردّ بشيء من التذمّر «عسّاس في معمل المقرونة...»

و عرفت في تلك الجلسة أنّه يعاني من مشكلة سكن لأنه كان يشتغل في الليل ويقضي النهار في هذه الحديقة، وقد صدر بشأنه قرار خطير صباح ذلك اليوم، فقد أخبره رئيس العمال بتغيير توقيت العمل إلى النهار بدل الليل، فلم يعد في إمكانه أن يقضي الليل في ذلك المكان لأنّ البرد هو الذي سيقضي عليه كما أن الحديقة تغلق أبوابها ولا يترك أحد داخلها... قال لي إنه يتقاضى مائة وعشرين دينارا يرسل معظمها إلى عائلته في الريف لذلك فهو لا يقوى على استئجار بيت ويبحث عن شريك أو اثنين يشاركانه «أستوديو» مثلا ..

أيامها، كنت وحيدا في بيت استأجرته منذ سنتين مع زميل دراسة تمكّن أخيرا من الزواج بعد أن فشل في العثور على عمل، قلت له يوما «صار البحث عن العمل أصعب من الدخول إلى الجنّة»

سألني : كيف ؟

– ها قد ضمنت نصف دينك بالعثور على بنت الحلال التي ستوفّر لك فرصا أخرى لدخول الجنّة تضاف إلى غبائك الذي أحسدك عليه ولكنّك ما زلتَ بعدُ عاطلاً يا صاحبي.

ضحكنا يومها كثيرا وشربنا على نخب جنّته، ثمّ ودّعني ليسكن مع زوجته التي قال يصفها : ليست جميلة. تشبه أخي الأكبر الذي كان يأكل عشائي في غفلة من أمّي. مطلّقة هي للمرّة

الثانية ولكنها تمتلك بيتا، وهذا أجمل ما فيها. وماذا فعلت بعذريّتي منذ أن تخرّجت ؟!!! دخّنت 3600 علبة كريستال و لم أجد حلا. هل تصدّق أنّي أحيانا أشفق عليها لأنّها ستتزوّج من رجل تعدّى تاريخ الصلوحية مثل علبة سردين فاسدة. ستقتلها رائحتها المتعفّنة ساعة تفتحها ؟ أشعر حقّا أنّ مدّة صلوحيتي انتهت... أحيانا يتعفّن السمك والبحّار بعد لم ير الشاطئ... هل ترى حجم الفاجعة حين تنتهي قبل أن تبدأ ؟!

قال لي وهو يودّعني : «سأرسل إليك قريبا من يسكن بدلا عنّي ويدفع معك إيجار هذا البيت».

ولكن منذ أن رحل لم يطرق بابي غير صاحب البيت كل أوّل شهر ملعلعا : «حضرتشي هاك القضيّة؟». كثيرا ما أرى عزرائيل في صورة هذا الملاّك، لا أدري وجه الشبه ! ربّما لأنّ كل واحد منهما يزورنا ليقبض، واحد يقبض العرق والآخر يقبض روح المتعرّق. عندما تعرّفت على النيقرو كانت قد مرّت على رحيله ثلاثة أشهر لذلك لم أتردّد في دعوته للسكن معي على أن يدفع ربع الإيجار على الأقل فوافق على الفور. كان مرعوبا من القرار الذي اتخذ في شأنه ولا يريد أن يفكّر في العودة إلى القرية. كان ككلّ المنحدرين من صلب القطار يخشى «الرّافل»، سألته في الطريق عن اسمه فقال : النيقرو

– النيقرو ؟!!!!!!!!

– نعم ينادونني في المصنع بالنيقرو.

– وعندما كنت في القرية ما كان اسمك ؟

– اسمي سعيد وأنا أكره هذا الاسم لأنّي لم أر من تلك السعادة شيئا لذلك يحلو لي أن أنادى بالنيقرو، حتى في القرية كانوا

ينادونني النيقرو وأنا من سرّب هذا الاسم بين العمال في المصنع، أشعر أنه يناسبني تماما، أليس كذلك ؟

– كما تشاء، سأناديك بما تريد (قلت ذلك وأنا أتابع سمرته الغامقة).

– فليكن النيقرو إذن ؟

– فليكن.

أخذت أحد أكياسه التي وضع فيها ملابسه وأخذ هو الكيس الكبير الذي حشاه بالأغطية الصوفية الثقيلة والمعاطف البالية وانطلقنا نجسّ الطريق، مررنا بمقبرة الجلاز، وقف يتأملها لحظات وقال : يقال إن المتر المربّع هنا بمئات الآلاف، كم أتمنى أن أدفن هنا. لا أريد أن أدفن في القرية أشعر أنها ستندثر قريبا... أريد أن أدفن في الضجيج.

قلت له مازحا : عليك إذن أن تدفن في ملعب كرة قدم، ربّما يكون أكثر ضجيجا.

أجابني : لا الملعب لا يزار إلاّ يوما واحدا في الأسبوع وبقية الأيام يكون مقفرا، أريد الجلاز لعلّي أقابل مسؤولا يشغلني حارسا على المقبرة.

– تريد العمل بالليل أم بالنهار (قلت مازحا)

– بالليل طبعا.

– تذكّر أنها مقبرة وليست مصنعا للمقرونة !!

صاح ضاحكا : بالنهار بالنهار...

منذ أن انتهك شورّب حرمة وجهه فصلوه من العمل، واختفت ابتسامته... لا أدري أين يذهب كلّ صباح ؟!!

4
حكاية
التمثال والعمامة وأخبار أخرى

لم أكن أحسب أن يومي سيمرّ بكلّ هذا...

حوالي الساعة التاسعة صباحا، كنت أمزّق شارع باريس متّجها نحو شارع الشوارع. دخلت مقهى الروتند، كان خاويا، خاليا إلا من سيدته الشهيرة. جلست إلى وحدتي أمصمصها. كان الرّجل صاحب الوجه المورّد والشعر الأبيض يجلس إلى طاولة بجانب السيدة منشغلا بإشعال غليونه، كانت تبدو عليه شيخوخة واضحة، تهدّلت وجنتاه وخاطت وجهه عشرات التجاعيد الدقيقة؛ خطوط مثل الشعيرات. وارتسمت عليه نقاط صفراء وبنية كأنها الحسنات قد تكاثرت وتجمّعت. لم تكن تلك التجاعيد تشي بعناء وتعب وهموم عاشها. كانت فقط تجاعيد الزمن لرجل عمّر طويلا... لا يمكنني أن أحسم الأمر في سنّه، قد يكون في التسعين أو ربّما عبر المائة... شعيرات التجاعيد الكثيرة كانت تشي بأكثر من ذلك... ذكّرتني تلك التجاعيد بوجه أبي، كان على العكس من ذلك أسمر أحرقته شمس «القوايل» وهموم الدنيا ومصائبها. كانت تخيط جبين أبي ثلاثة أودية عميقة وقفت ليلة احتضاره أفكّ رموزها، فخمّنت أن

الوادي الأوسط كان وادي الفقر لذلك كان أكثر عمقا... كان غائرا في الجبهة حتّى العظم والوادي الثاني للحظّ القليل والأحلام الضائعة والوادي الأسفل لثقل الأبناء؛ زينة الحياة الدنيا ونقمتها.

لم يعش أبي كثيرا، لم يعبر الستّين بكثير، لم يعرف الشيخوخة، مات وهو يهوي بفأسه على السدرة الشوكية الأخيرة في الحقل ليجهّز الأرض للحرث والزراعة. كانت تلك آخر حركة، رفع فأسه عاليا ليقطع جذور السّدرة الطفيلية. انفتح الفتق في خصره صاح صاحب الفأس وسكت. ليلة واحدة انتظرنا فيها محتضرا. حضرنا من أقصى الدنيا. دفنّاه وتمزّقنا على الغربة بعد أن قسّمنا تركة الرّاحل، كان نصيب أخي الأكبر الشاشية، أخذت أنا حقيبة الأوراق الفارغة وبطاقة الهويّة واحتفظت أختي بساعته اليدويّة.

الأرض اليوم احتلّها السّدر والجرذان وعواء الذئاب.

تركت وجه العجوز الذي أشعل غليونه بعد عناء وبدأ يراود سيدة المقهى المهجور. وقفت أمام مكتبة الكتاب، تصفّحت عناوين الواجهة؛ كتب قديمة وعناوين بلهاء تتاجر بالحرب الدائرة والحروب التي كانت، نفضوا الغبار عن كتب الحروب الأولى وخطب القائد وعرضوها بأسعار ملتهبة؛ هزائمنا أغلى منّا. انعطفت نحو «باب بحر» مررت مسرعا بمقهى «لينيفار» كان يعجّ... كنت كلّما مررت بهذا المقهى

أصابتني نوبة من الحكاك، وكأنّ المكان محشوّ ببراغيث الدنيا. خطوات معدودات، وجدت نفسي أمام الكنيسة العملاقة، تسمّرت في مكاني لألتقط زاوية جانبية لتمثال ابن خلدون. كان يبدو نحيلا، متجهّما، عبرت الطريق متحدّيا سيل السيارات الشعبية التي تكاثرت هذه الأيام كالبكتيريا. وصلت إلى التمثال، أمسكت بحديد السياج، العشب الأخضر بدأ لونه يميل نحو صفرة مميتة، وابن خلدون عاليا يقف محتضرا. اقتحم رؤيتي مصوّر فوتوغرافي يعرض خدماته، اعتذرت، ألحّ، نهرته، ذهب ساخطا، عدت إلى الوجه الملتحي. لم أصدّق ما رأيت... كان القمل يجتاح اللحية في حركة شبيهة بحركة الموج ...كان سرب منه قد خطّ سبيلا على العنق في اتجاه الشعر المبعثر، تذكّرت قصّة العمامة الضائعة... رأيت العلامة ينحني علي ليهمس :

– أرأيت ؟

واصلت تيهي مع حركة القمل الهمجي الذي أكل اللحية وعشّش تحت الأذنين.

عاد عبد الرحمان يهمس :

– أرأيت ؟

أجبت متلعثما : «ماذا ؟»

– الموج الأسود

– هذا إذن سبب هزالك وعلّة شحوبك ؟

– وأمور أخرى

– وكيف أساعدك ؟
– لا أحسب أنّه سينفعني دواء. إنّ قمل التماثيل عنيد ومميت سينخرني حتّى أسقط...

* * *

كان ابن خلدون الحزين قد ترك كتابه وانشغل بفلي القَمْل الذي هجم على لحيته منذ أن أغلق الشارع، وهجره المصوّرون والسيّاح.

ترك مكانه مرّات أثناء شهور الترميم.

نزل مرّة إلى محطة برشلونة، أراد أن يركب القطار ويرحل لكنّهم أعادوه إلى مكانه مكبّلا في الأصفاد. كان يحلم بالسفر بعيدا عن ذلك القرف الذي نصّبوه شاهدا عليه. كان يخشى أن تصل إليه رفوش المرمّمين.

اعترضني منذ شهر في نهج الدبّاغين يبحث عن كتاب بخس. حدّثني عن كتابه الذي ملّ حمله بين كفيّه. لم يكن مسلّيا إنّما هو حكم ينفّذه منذ قرون، وهمس لي في أذني، إنّ ذلك الكتاب ليس كتابا.

وعندما أردت أن أستفسر عن سرّه وصلوا، استلوا أحزمتهم السوداء وعصيّهم البيضاء وانهالوا على المسكين جَلْداً أمام الخلق، تطاير لحمه سيورا، كبّلوه، طوّقوا رقبته بأحد الأحزمة وجرّوه وراءهم مثل جاموس عنيد.

أعادوه إلى قاعدته الصلبة.

مسّكوه الكتاب اللغز.

ورحلوا.

لم ينتبهوا إلاّ في صباح اليوم الموالي إلى أن عبد الرّحمان بلا عمامة كان شعره مبعثرا تلاعبت به الريح وعفّرته أتربتها. بحثوا عن العمامة في كل الأنهج والشوارع، عادوا إلى الدّباغين حيث كان يقلّب الكتب، اعتقلوا كل من اشتبهوا فيه، لكن مصير العمامة ظلّ مجهولا.

قرّروا، بعد أن أعياهم البحث، أن يعلنوا الخبر

وجاءت صحف الصباح تحمل خبرا واحدا :

«تعلن وزارة الثقافة والمحافظة على التراث أنّه وقع التحوير في هيئة تمثال ابن خلدون المنتصب في قلب العاصمة التونسية بعدما نظرت في تقرير لجنة علماء الآثار والتاريخ التي عثرت على ورقة مخطوطة من المرجّح أنّها سقطت من كتاب التعريف للعلامة ابن خلدون المغربي يذكر فيها أنه لم يضع عمامة قطّ فقد كان يقتدي في ترتيب هيئته بفلاسفة الإغريق واليونان.

و يقول في نفس الورقة إن الشاشية والعمامة والقبعات بجميع أنواعها الإفرنجية منها والمغولية والشاشانية والأفغانية والأسوانية، مفسدة لرأي المرء وجلابة للنسيان والجنون ومذهبة للأدب وقد تكون حجة إدانة في ترحاله أضف أن الله لا يحب أصحاب العمائم لأنّهم بذلك يجعلون بينهم وبينه حجابا.

لذلك قررت وزارة الثقافة والمحافظة على التراث نزع عمامة ابن خلدون تصحيحا للتاريخ واحتراما لرجل خدم البلاد والعباد.»

في ركن الصفحة من الجريدة يمكنك أن تقرأ لأدونيس :

ألمح بين الكتب الذليلة
في القبّة الصفراء
مدينة مثقوبة تطير
ألمح جدرانا من الحرير
و نجمة قتيلة
تسبح في قارورة خضراء
ألمح تمثالا من الدّموع
من خزف الأشلاء والركوع
في حضرة الأمير

* * *

من يصدّق هذا الهراء ؟!!!! متى تعود إلى بيتك أيها الرسّام الشقي، لقد أكلني الخراب وشرفتك أصبحت تطلّ على الآخرة...

الجزء الثالث

1

اقتحام غرفة أرشيمبولدو

ماذا تراك تقول عنّي يا صديقي الفنان المعتوه ؟ استوليت على بيتك و لم أكلّف نفسي حتّى زيارتك في المستشفى ؟ لا أدري ما الذي جعلني هذه الليلة فقط أقتحم غرفة نومك ؟ هل اشتقت إليك ؟ أم هو الحدس بأنك ستترك المستشفى قريبا ؟ ها هو ألبوم صورك على سريرك ! يبدو أنك كنت آخر مرة تقلّب ذكرياتك. ها أنت بقميص الجينز والسروال الفيلور تستند إلى قاعدة تمثال بورقيبة الذي كان مكان الساعة العملاقة، يبدو أن هذه الصورة، كانت أول الصور التي التقطتها لنفسك بعد نزولك إلى العاصمة، كل الذين يأتون إلى العاصمة يسارعون بأخذ هذه الصورة ربّما ليتأكّدوا أنهم بالفعل في العاصمة، وربما ليرسلوها إلى أهاليهم تفاخرا، هل نسيت أن ترسلها إلى أهلك ؟ من هم أهلك... لا أذكر أنك حدثتني عنهم ؟!!

ها أنت على دراجتك النارية الحمراء تحمل في يدك الخوذة وشعرك الطويل مبعثر على كتفك، نحيف كما أنت دائما تأكل نفسك مع كل لوحة. كنت أتّهمك دائما بجنون

الفنانين، يبدو أنني أنا أيضا أسير بخطى حثيثة نحو اللامعقول، البارحة اتهمني النيقرو بالجنون عندما سألته عن ابن خلدون، قال إن ما أراه ليس سوى وهم وإن كل ما في الأمر أنني كنت أكتب رواية عن التمثال أردت أن أعارض بها سيرة العلاّمة فسقطت في فخ الكذبة وأصبحت أعتقد أن ما أكتبه يحصل بالفعل. لا أدري من منّا الصادق، أنا الذي أقضي اليوم مع عبد الرحمان وأدوّن ما أراه ليلا في هذا الدفتر أم النيقرو الذي يقول لي إني لا أكتب إلا خيالا ؟! منذ أيام هدّدته بالطرد إن عاد إلى لغوه، اليوم شعرت به يتسلّل باتجاه سريره عندما أحسّ بخطواتي تقترب من الباب رأيته يطفئ الضوء ويسرع إلى غرفته، لم يعد يرغب في رؤيتي، ربّما لهذا أتيت إلى غرفتك لأني أريد أن أحدّث أحدا، رئيس التحرير لم يعد يريد أن ينشر لي شيئا منذ مدّة، قال لي «قصصك لا يصدّقها أحد ومن الأفضل لك أن تهتم بإصلاح المقالات التي تصلك إلى مكتب الإصلاح لأني اكتشفت أخطاء كثيرة في كل المقالات التي تكلّف بها»، في الحقيقة، كنت في كثير من الوقت لا أصلحها فعلا وأعيدها إلى المطبعة كما أتتني... ومن يقرأ هذا اللعاب الحبري ؟!! كلام فارغ عن الكرة وإعلانات المشعوذين والبيع بالتقسيط... لا شيء يستحق أن نعمي العيون في إصلاحه، صحافتنا تحتاج إلى تقويم أعضاء لا إلى من يصلح هزالها اللغوي.

هل مازلت تحب أرشيمبولدو وسلفادور دالي ؟!!

ماذا تراك تفعل مع ممرضات الليل أيها الوطواط الماكر ؟ أنا متأكّد من أنك كعادتك لا تنام ولا بدّ أنك تطارد الممرضات في كل شقوق المستشفى.

* * *

اليوم أعياني التفكير وقرّرت أن أعود إلى الطرق التقليدية لكشف الجاني، ابتعت كلّ كتب السّحر الشهيرة وتلك الكتب الصفراء التي يستعين بها المشعوذ والمتطبّب، كان لا بدّ أن أتّخذ سبيلا آخر غير الذي اتّخذه المحقّق، هذه قضيّة عجيبة ولا بدّ أن الجاني درس جريمته جيّدا قبل أن يشرع في تنفيذها، ولا بدّ أنّه وضع كلّ احتمالات البحث، ولكنّه لن يفكّر في هذه الطريقة البدائية أبدا.

* * *

﴿في بيان السرقة ومن سرقها والجريمة ومن ارتكبها﴾

تأخذ مسمارا حديدا مربّعا على أربعة أوجه تكتب في الوجه الأول ﴿كهيعص﴾ وفي الثاني ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ والثالث ﴿ص والقرآن﴾ والرابع ﴿ق والقرآن المجيد﴾ وتأمر المتهمين أن يجلسوا على إلياتهم وادخل في وسطهم واضرب المسمار ثماني دقات وعزم على كل دقة بسورة الملك مرة واحدة حتى تكمل ثماني دقات وتأمرهم بعد ذلك بالقيام فالذي هو بريء يقوم والمذنب لا يقوم حتى ينقلع المسمار من الأرض...

عجيب هذا الكتاب ! هكذا يجب أن يبدأ البحث.
سأنسخ كلّ ما يمكن أن يفيدني.

﴿التصريف الثاني عشر في طي الأرض﴾

إذا أردت أن تطوي الأرض فاقرأ الدعوة في ليلة في فلاة من الأرض وأنت تبخّر بالبخور المذكور للخدمة فإن الخديم من الجنّ يقف فيسلّم عليك فلا تجبه فإنّك ترى في يده عصا اخطفها من يده وسر إلى مكانك فإنّه لا يتبعك فإن أردت أن تصل المشرق أو المغرب في مسيرة يوم فخذ تلك العصا وأقرأ عليها الدعوة وسر حيث شئت فإنّك تصل مسيرة عام في يوم واحد.

﴿التصريف الثالث عشر في الطيران﴾

إذا أردت أن تطير في الهواء فخذ البخور المذكور وأجعله في دهن ورد وأدهن به جسدك كلّه وأقرأ الدعوة مائة مرّة فإنّك تطير في الهواء حيث يشاهدك من حضر من الناس.

﴿التصريف الثامن في حجاب الإبصار﴾

تكتب الخاتم الكبير في ورقة من الكاغد وبخّرها ببخور الخدمة واتل عليه الدعوة سبع مرّات فانّك تطير في الهواء وتنزل على المكان المتهوم.

2
من كراسة النيقرو

متخفيا في ملابس راعي غنم

ذكر ضابط عراقي سابق أن الرئيس العراقي صدام حسين بدأ أخيرا العمل لاستعادة فاعلية التنظيم العسكري لحزب البعث ومد خطوط ارتباط مع جماعات المقاومة بما فيها المجموعات الإسلامية عن طريق تمويلها بما تحتاجه من مال وسلاح.

و قال الضابط العراقي لصحيفة «الحياة» الصادرة بلندن أمس إن صدام يتنقّل متنكرا بملابس رعاة غنم ويوجد معهم في مكان ما غرب العراق ووسطه وقد أبعد عنه جميع عناصر حمايته ومرافقيه السابقين خاصة أبناء تكريت مستخدما في تحركاته ونشاطاته الأموال التي مازالت تحت تصرّفه.

الوطن تغرد خارج السرب

التأمين على مؤخرة جنيفر لوبيز

يعادل ثلث مبالغ مكافحة المجاعة الإفريقية

يمتن الأمريكيون للثقافة اللاتينية التي وهبتهم مغنّية وممثّلة تجيد إغراء لجان التحكيم عندما ترقص على مائدة يجتمعون حولها، وهم يتصببون عرقا على جسدها المنحوت ولونها البرونزي، ونظرتها التي تحطم الأعصاب وهي تخرج من قاعة الرقص تهندم «المايوه» من الخلف.

جنيفر لوبيز خافت من العين الحسودة، ليس فقط لأنها ثاني شخصية استعراضية بعد مغني الروك أوزبورن تقتني سيارة بنتلي التحفة بسرعة 318 كم في الساعة، وبسعر قدره 200 ألف دولار، بل لأنها تعرف أين تستقر أعين الرجال الجائعة عند مراقبتهم لرقصها الأفعواني، لذلك أمّنت على مؤخرتها بخمسة ملايين دولار، أي ثلث المبالغ، التي تسلمتها الأمم المتحدة لمكافحة المجاعة في دول الساحل الإفريقي، وأكثر من المبلغ المخصّص لمواجهة المجاعة في موريطانيا !؟ كما أنه قد يكون ضعف المبالغ السنوية التي تخصصها بعض الدول العربية للتعليم.

و يبدو أن التأمين لم يخفف من قلقها، فلجأت كعادتها إلى معالج روحاني يطهّر منزلها من الأنفاس السيئة والأرواح الشريرة بعد كل حبيب تهجره، حتى أنها باتت تنفث التمائم على الأشخاص المخطئين بحق مؤخرتها بعد كل رقصة أيضا، كما امتنعت عن الرقص في الملاهي الليلية بحرية قائلة «أنا مقهورة لأنّني محرومة من تحريك مؤخرتي كما يجب».

.....

خوذة طيار إسرائيلي في العراق

كشفت مصادر إسرائيلية أمس أن القوات الأمريكية قد عثرت مؤخرا على خوذة لطيار إسرائيلي يعود تاريخها إلى حرب الأيام الستة في 1967 وحسب مصادر إسرائيلية فان تاريخ صنع هذه الخوذة يعود إلى عام 1966 ويفترض أنها تعود إلى أحد طياري الطائرات العسكرية الثلاث التي تعرضت إلى القصف من قبل القوات العراقية في شرق بغداد في اليوم الأول من حرب الأيام الستة في جوان 1967.

البيان

حصان يقضم قطعة من مؤخرة أشهر مطربة بوسنية

نقلت أشهر مغنية بوب بوسنية إلى المستشفى لتلقي الإسعافات اللازمة وذلك بعد أن أقدم حصان جائع على قضم قطعة من مؤخّرتها أثناء انهماكها أوّل أمس في تصوير لقطات لأحدث أغاني الفيديو كليب الخاصة بها، حسب ما ذكرت جريدة «الرأي العام» الكويتية .

وفي التفاصيل أن المغنية الشابة «جانا» كانت تحمل بضع جزرات كي تطعم بها الخيول في المزرعة التي كانت تقوم بتصوير لقطات كليب فيها، وفي تلك الأثناء حشرت المغنية جزرة في جيب بنطالها الخلفي، وهي الجزرة التي بقي نصفها بارزا إلى أعلى، وبينما كانت المغنّية تتراقص على إيقاع أنغام الموسيقى بين الخيول، اجتذبت الجزرة الناتئة انتباه حصان جائع فاقترب من الخلف وحاول التهامها إلاّ أن أنيابه لم تصل إلى الجزرة فحسب بل نهشت أيضا قطعة صغيرة من مؤخّرة المغنية التي راحت تصرخ من شدّة الألم. وعلى الفور تم نقل «جانا» إلى المستشفى حيث تلقت الإسعافات الطبية اللازمة ثم عادت إلى منزلها بعد أن قطعت على نفسها عهدا بألاّ تكرّر تجربة الاستعانة بأي حيوانات في أعمالها المقبلة.

تجدر الإشارة إلى أن الصحيفة الكويتية وضعت مع المقال صورة المغنية التونسية «نجلاء» وهذا ما أثار سخط الرأي العام التونسي على جريدة «الرأي العام» الكويتية التي منعت من دخول الأسواق التونسية منذ ذلك التاريخ.

قضيّة «قناص النساء»

شرع أحد قضاة التحقيق بالمحكمة الابتدائية بالعاصمة التونسية مؤخّرا في استجواب الشابين المتهمين باقتراف جانب من سلسلة الاعتداءات التي استهدفت في الأسابيع القليلة الماضية مؤخرات النساء لتحديد العدد الجملي والحقيقي للاعتداءات التي نفّذاها ولدور كل منهما فيها

وكانت النيابة العمومية بهذه المحكمة قد أصدرت مؤخّرا بطاقتي إيداع بالسجن ضد المتهمين اثر إيقافهما بمنطقة سيدي حسين السيجومي غرب العاصمة حيث نفذا آخر اعتداءاتهما. يذكر أن هذه الاعتداءات تتمّ بواسطة مشرط يستخدم في الأصل في الجراحة الطبيّة وإنها قد تركّزت خصوصا في مناطق شعبية بوسط العاصمة والضواحي القريبة منها مثل لافيات وباب سويقة وباردو مع العلم أن عدد الإصابات المعلن عنها لا يقل عن مائة حالة ومصدر آخر يقول إن عدد الإصابات تجاوز الألف إصابة.

الرأي العام

سلسلة ذبح مؤخرات النساء في تونس

تدخل الأحياء الراقية !!!

عادت الاعتداءات التي استهدفت مؤخرات النساء.....

تفووه عليك يا دنيا !!

* * *

أحسن طريقة تنمّي بها رغبتك الأصيلة في الانتحار هي قراءة الصحف صباحا، تشعر منذ الصفحة الأولى أنّه لا قيمة لما تفعله وأنّك مثل بقّة يتيمة على الجدار ستهوي عليك «فردة» الحذاء في أية لحظة وتسحق أحلام رحلتك البيضاء... لست أدري لماذا ينتابني إحساس بأنّي سأتبخّر... سمعت أنّ أمي توفيت ولكنّني لم أحزن، حدث ذلك معي قبل أن أقرأ «غريب» كامو ! أشعر الآن أن رائحة قلبي تشبه رائحة حذائي البلاستيكي – البوط– الأسود الذي كنت أقوم، وأنا طفل، باكرا حتى أتمكن من احتذائه كنت أضربه على حائط البيت فلا تنزلق فيه قدماي الصغيرتان إلا بعد ساعة، أركب بعدها الطريق

المظلمة نحو المدرسة، كانت المدرسة بعيدة عن البيت بأميال لذلك كان علي أن أنهض باكرا وأمشي طريقي وحدي أتحدث إلى الأشباح والخنازير وأشجار الزيتون السوداء، عندما تنهض الشمس من خلف الجبل أكون قد أشرفت على «الدشرة»، أدخلها من جهة الجبّانة، ما أقبح القرى والمدن التي مداخلها مقابر ! تشعرك دائما بأنّك تدخل الآخرة. في فصل الشتاء يختلط علي رعب الطريق برعب المعلّم الذي يشهر في وجوهنا كل صباح عصاه السوداء، كل شيء كان أسود في تلك الأيام السوداء، أبي يركب حمارته القصيرة [يقول بولحية إنّ أنثى الحمار تسمّى الأتان، ليس مهمّا هذا الكلام] كان أبي يركب حمارته القصيرة منذ الفجر ويصعد «جبل الريحان» الشاهق، كان أبي عاملا في حضيرة تنشغل بإقامة شيء كالطريق يقسم الجبل نصفين، كنت أسأله بين الفينة والأخرى : لماذا حلقتم ذلك الجزء من الجبل فيقول مبتسما : وقاية من الحريق، إذا ما نشب الحريق في النصف الأيمن من الجبل لا يعبر إلى نصفه الآخر لأننا نزعنا من أمام النار كل الأشجار والأعشاب حتى لا تمرّ... الحق أقول لكم لم أكن أفهم شيئا من ذلك الكلام، ولكنني كنت مع ذلك فخورا بأبي وأقول لأترابي مشيرا إلى الجبل : لولا أبي لاحترق ذلك الجبل وربما احترقتم جميعا...

كان أبي يتقاضى دينارا وتسع مائة مليم في اليوم ويقبض كل خمسة عشر يوما، كانوا يعطونه أيضا علبة سردين وقليلا من السكر والشاي وحليب «الغبرا»، كان لا يستلم تلك الغنيمة إلا

كل ثلاثة أشهر فيعود على الحمارة القصيرة محمّلا بأكثر من ثلاثين علبة سردين بعد أن يمرّ بـ«علي بالشيخ» الحوانتي فيبيع جزءا منها، كنّا أنا وإخوتي نقضي الأسابيع لا نأكل إلا السردين المعلّب، أمّي كانت تضعه لنا عند الغداء وعند العشاء حتّى كرهنا رائحته، أففففففففففففففففففففف. أما الحليب الغبرا فكلما شربته شعرت بمغص شديد في أمعائي لذلك امتنعت عن شربه رغم عصا أمّي، كثيرا ما كنت أتعرّض للضرب لأنّي لا آكل ما يقدّم لي، في «الكنتيلة»، في السنوات الأولى بالمدرسة كنت أكره البطاطا ولا أقدر على ابتلاعها، سالمة بنت بشير بن عليّه الطباخة كانت تصرّ على أن آكل ما في صحني من البطاطا التي أذكر أنها مقرفة بالحبّات السوداء التي تحملها... أذكر جيدا ذلك اليوم الذي أخذت فيه سالمة ملأ فمي بالبطاطا التي تركتها في الصحن وتجبرني على أكلها بالقوّة، عندما خرجت من الكنتيلة قذفت كل ما في جوفي و لم أعد إلى ذلك المطعم المجاني أبدا. كان الجوع أهون علي من بطاطا سالمة العفنة، إلى اليوم لا أقرب البطاطا كلّما رأيتها تذكّرت سالمة وهي تلقمني صارخة مثل ساحرة شمطاء... حدّثني بو لحية عن لوحة لفان كوخ اسمها «الذين يقشرون البطاطا» أو شيئا كهذا، قلت له : كرهت اللوحة والرسام، لا تحدّثني عنهما بعد اليوم ! رغم محاولاته إقناعي بأنها لوحة شهيرة وأن الرسام من كبار الرسامين في العالم، لم أقتنع و لم أصغ إليه... لم أعرف فان كوخ إلا عندما شاهدت نسخة من لوحته «عباد الشمس» كان قد علّقها صاحب هذا البيت الذي

لم أره أبدا، يقول بو لحية إنّه رسام موهوب ولكنّه مجنون، بو لحية أيضا مجنون بالحديث عن البطاطا ! البارحة حدّثني عن رواية «جبل العنز»، نصحني بقراءتها فرفضت ذلك بمجرّد أن ذكر لي أن الأحداث تدور في قرية لا تنبت إلا البطاطا... أضفت منذ سنوات إلى لائحة الأطعمة المكروهة «المقرونة»، كنت لا أرى في المصنع إلاّ «المقرونة» : «الفل والسباقيتي والدويدة والببوش والبابيون والروسول والتاليفون»... عالم من المقرونة التي يعجنها العمال القذرون بكثير من الإهمال، في أوقات كثيرة رأيت بعض العمال يهرّبون الأكياس من الباب الخلفي حيث يقف الحارس الآخر ويرشونه بأكياس منها. كنت أقول : تبّا، التهريب مقرونة والرشوة مقرونة !!!!!!!

أكاد الآن أقول بعد هذه الذكريات أن أحسن طريقة للانتحار هي الحياة في معمل المقرونة... طردوني منه بعد أن اشتغلت به خمس سنوات، اتهموني بأني أهرّب المقرونة... يا ما أبشعها من تهمة !!!! رأيت نفسي أشبه ما أكون بمن يتّهم بمعاشرة قردة في الحرام.

* * *

لماذا المؤخرات بالذات ؟!! ألم تعجبه الأماكن الأخرى ؟!! هل يكون ذلك الجاني من أعداء البطاطا والمقرونة مثلي ؟ أعراض تلك الأكلتين تفعل فعلها في ذلك المكان من الجسم، أين قرأت ذلك ؟ أذكر أني قرأت روايات كثيرة تتحدّث عن

المؤخرات والأرداف... هاهي واحدة منها قريبة مني على المكتب... مممممم «**دفعني من الخلف. استدرت. اصطدمت بشخص آخر. اعتذر لي الشخص الثاني. اعتذرت أنا للأول الذي كان يلاحق فتاة مرت قدّامه بلباس قصير، مؤخرتها ممتلئة، مشيتها راقصة ...**» لا، ليس هذا كل شيء...

مممممم «**ها فخذاي جميلان. مؤخرتي ممتلئة. سروالي القصير الشفاف، أبيض أو وردي، يكشف عن أسفلي الحليق أو غير الحليق، نهداي دون رافعتين. ميني أو ميكرو من جميع جهات الجسم. السيقان، الأفخاذ، المؤخرات، النهود والوجوه...**» مازال الخير ...مممممم «**خطت خطوات إلى الوراء قبل أن تدبر في مشيتها الغريبة محاولة أن تستر بيدها جانبا من ردفها. غريبة هذه الفتاة. مؤخرتها تبدو عادية. لماذا إذن تحاول سترها ؟ أتكون قد حدثت لها مشكلة موئلة مع مؤخرتها ؟ مشاكل لأصحابها وليست لي**». تبّا لهذا الملعون الذي نبت مثل نبتة شوكية نجسة من كيس قمامة ليقول عفن هذه الأوطان... أذكر أن كاتبا آخر بنى قصته من ذاكرة مؤخرة... منذ مدّة وأنا أتابع سيرة المؤخرة، في هذا الكم من الكتب التي تزدحم بها مكتبة هذا الرجل الذي استولينا على بيته، لعلّني أعثر على خيط يفكّ لي لغز هذه القضيّة التي شغلت الرأي العام دون أن أظفر بشيء. بو لحية منشغل منذ أسابيع بكتبه الصفراء التي لم يعد يقرأ غيرها، رأيته هذا المساء ينسخ بعضا منها في دفتره الذي لا يفارقه أبدا، ربّما هو الذي أوحى لي بالهروب إلى هذه

الكراسة. أشعر أنّ مؤخّرتي تجمّدت فوق هذا الكرسي ومللت هذا الهذيان وهذه المذكرات، سأغفو قليلا قبل أن أركب الفجر إلى نهار الشطط.

* * *

البارحة سقط الحرز من عنقي في فتحة المرحاض، فأصابتني حالة من الرعب، أغرقته بالماء وعدت إلى سريري. بدأت أشعر بقشعريرة ثم رعدة شديدة، فجعلت أتدثّر بالبطاطين والفرش ونمت أصارع حمّى ثقيلة ألمّت بي فجأة. عندما تذكّرت عبارة غوته «ما أشدّ حماقة من يموت بالحمّى»، عبارة كنت قرأتها في ورقة رمى بها بولحية في كيس القمامة، نهضت وغطست في كتبي فنسيت. حدث لي مثل هذا عندما أقدمت يوما على فتح ذلك الحرز الذي علّقته لي أمّي منذ أيام طفولتي الأولى. في الحقيقة لا أذكر متى علّقته في رقبتي بالضبط، ربّما عندما كنت في الخامسة أو السادسة... لكنّي مازلت أذكر بعض ذلك الكلام الغريب الذي قرأته حين فضضته وأنا في الخامسة عشر تحت شجرة الخروب، خروبتنا الكبيرة التي كانت تحتضن الدار :

ساملي كرام عشام طناخوش نانوش كيكوش مليشوش طهير نوش سلناش غيوش سلطام قرون لرعوش ماعوش شطواش شامدوش عيوش كيوش لكانوش سلام على نوش... بحق من له العزة والسلطان هو الله الواحد الأحد يا شرياييل يا

طباير يا طلايع أعاريا احجبوا حامل هذا الحجاب من الأرواح المؤذية احجب يا طحيل وأنت يا هيطايل وأنت يا طرهيل وأنت يا هياشمهيل.....

يومها فهمت أن أمي لم يكن يعيش لها الذكور من الأبناء وأنها وضعت لي هذا الحرز حتّى أعيش وعشت وأنا أخاف على هذا الحرز أكثر من خوفي على نفسي. اكتشفت بعد مدّة أن أمي لم تكتف بالحرز بل ثقبت أذني اليسرى في زاوية الولي الصالح ووضعت فيها قرطا لم أنزعه إلاّ عندما تجاوزت العاشرة من عمري، عندما ضحكت منّي «فلة» التي كنت أطاردها وقالت ساخرة : «برّا ألعب بعيد. كان جيت راجل ما تحطّش بلّوطة في وذنك كالبنيّة».

مازالت أذني «مشرومة» منذ ذلك اليوم، عدت مسرعا إلى البيت وطلبت من أمي أن تنزع لي القرط فرفضت بشدّة، هدّدتها بأني سأنتزعه وحدي فرفضت وبكت وقالت إنّني سأموت لو فعلت ذلك، ارتجف قلبي خوفا عند سماع كلمة موت ولكنني ما إن تذكرت ضحكة «فلة» الساخرة حتّى ارتفعت يدي إلى أذني وسحبت القرط بكل قوّتي فانهمر الدم يكسوني. مازلت أذكر صراخ أمي وهي تندب وجهها كعادتها كلّما غضبت، أقرب شيء إلى يد أمي وجهها لذلك كانت لا تردّد في سلخه متى أعوزتها الحيلة، مازالت آثار ذلك الثقب

ظاهرة إلى اليوم... اليوم أشعر أنّني تخلّصت نهائيا من العبودية بعد أن فقدت ذلك الحرز.

* * *

أنا خائف على بو لحية جدا. يبدو أنّه يتقدّم نحو الجنون بسرعة عجيبة. منذ مدّة كان قد حدّثني انّه يفكّر في كتابة رواية عن تمثال ابن خلدون. قلت له إن الفكرة طريفة. قرأ لي جزءا منها فأبديت إعجابي بما كتب،. بو لحية يعلم أني أعشق الحكايا عشقا لا حدود له، لكن يبدو أن الأمر تطوّر في اتجاه لم أكن أتوقّعه أبدا والحكاية انقلبت واقعا،. البارحة هدّدني... قال إنّه سيرمي بي إلى الشارع إن واصلت لعبتي. بدأ الأمر يوم عاد باكرا وسألني عن ابن خلدون، قلت له ساخرا : انه ينام في أحضان تيمور لنك... كنت أحسبه يمازحني كعادته غير انه عاد إلى سؤاله غاضبا : هل جاء ابن خلدون يبحث عني؟؟؟ ... عندما قلت له إنّ هذا الذي يدّعيه جنون وإنّه كذب الكذبة وصدّقها وإنّ حكاية ابن خلدون مجرّد حكاية اخترعها، هدّدني بأنه سيعيدني إلى الشارع الذي التقطني منه... في تلك الليلة تطاول عليّ فوق العادة، لا أدري كيف احتملت شتائمه. رماني بأبيات المتنبي التي قالها في هجاء كافور... أذكر انه شبّهني بالعبد الذي لا تنفع معه إلا العصا... ليلتها دخلت فراشي فوجدته باردا كالقبر، أعادتني شتائم بو لحية إلى عبوديتي فرأيت نفسي بين يدي أمي أمام قبر الولي الصالح المغطّى بلحاف حريري أخضر وأحمر وهي تغرس «المخيط» في أذني مردّدة كلاما لا أفهمه، كانت المرأة الدميمة

العرجاء تغلق لي فمي بيديها الخشنتين وتمنعني من الصراخ. قمت فزعا ارتميت على الكرسي الخشبي ورحت أركض في أوراق وكتب إلى أن صرخ الصباح.

لم يعد بو لحية إلى الآن. الساعة تشير إلى الخامسة فجرا. لا أدري أين يذهب في هذا الليل الذي لا يشجّع إلا على الجريمة. جرحي الذي التأم تذكّرني آثاره الباقية بأن الحياة سوداء مثل بشرتي تماما. لا شيء أشدّ سواداً من بشرتي غير تلك الليلة التي تحولت فيها إلى أضحوكة. تلك الليلة التي زارنا فيها ابن الحجّاج الحقير، لا أريد أن أذكرها !

* * *

اليوم قرأت قصة عجيبة عنونها صاحبها : «المقرف المضحك أو من تاريخ حياة مؤخّرة»، لم أكن أحسب قبل قراءة تلك القصة أن للمؤخرات تاريخاً أيضا !!

أطرف ما قرأت في تلك القصة حكاية المؤخرة في الحرب، حرب العرب ضدّ إسرائيل، حيث كان صاحب المؤخرة يحاول الاختباء من العدو... اللعنة عليك يا يوسف.... مممممم **« كان علي أن أختار : أحمي نصفي الأعلى أم نصفي الأسفل ![....] كنت قد أدخلت رأسي في الفتحة الأرضية بحيث أصبح أنفي يكاد يلامس ما تركه لي إخوتي في البشرية من بقاياهم ومع أن معظمها كانت قد قددته الشمس إلا أن تلامس أنفي معه كان أمرا فظيعا غير محتمل [...] كانت أصوات الانفجارات من حولي تتتابع ووهجها ينفذ من الفتحة نصف**

المعتمة التي وضعت فيها نصفي الأعلى، خطر لي خاطر أفزعني تماما : مؤخرتي الآن مكشوفة لأية شظية مجنونة. من قال أنني برأسي فقط يمكن أن أعيش، ليس بالرأس وحده يحيا الإنسان، كيف أحيا إذن لو شظفت مؤخرتي... كيف أقضي حياتي... سينساب الصنبور... وفجأة وجدتني أضحك وجسدي يهتز وأنا أحاول أن أزم شفتي حتى لا يتسلل بينهما شيء مما يزحم أرض الخندق ...»

الحق أقول لكم إنّ تلك القصة بسخريتها المختلفة كانت أصدق تعبير عن الهزيمة. يبدو لي الآن أن كلّ أسرار الخلق في مؤخراتهم، في ذلك المكان تتجمّع كلّ الحكايات التي لم تخرج إلى العلن. ويبدو والله أعلم، أنه كلّما كبر حجم المؤخرة كبرت أسرار المرء. يقول أبي إنّ الجمل يخزّن الماء في تلك الهضبة على ظهره لذلك يصبر على العطش. قد يكون هذا السبب هو الذي جعل صائد النساء يختار ضحاياه من الأوزان الثقيلة! هكذا قرأت منذ أسبوع أن معدّل أوزان الضحايا يتجاوز ثمانين كيلو غراما ولا شك أن قسطا مهمّا من الوزن ينام في ذلك المكان الناعم. أظنّ أن الجاني يريد اكتشاف أسرار النساء الثقيلات أو المثقلات بالحكايا.

هل أكون اكتشفت أول خيط لفكّ أسرار القضيّة ؟؟!!

* * *

اكتشفت أن المرأة كبيرة المؤخرة أو الإست يقال لها **ستهاء** وأن الإست يسمّى **ثعلبة** وتسمّيه العرب **جارة الجار** (الفرج)

ويسمى أم سويد وأم سكين وأم عزمل وأم تسعين وأم عرم والوجعاء والزباء والسبّة والجعبي أما الأرسح فهو الذي لا إست له ويوصف به عادة الفارس. ونسمّي المؤخّرة – تغزّلا – خديجة وخدّوجة.

* * *

لطفي زوزو أيضا كان كبير السبّة يعرضها على من يشاء، قيل لي إنّه يكفي أن ترمي يدك على إسته حتى ينتفض من مكانه معترضا، فإذا ما تجاهلته بادرك بكفه الرطبة وهو يقول : «شبيك نرفوزي...

كنّا في المقهى، أنا وجملة من أصحاب السوء عندما مرّ لطفي المسكين فأخذنا ننهش سيرة إسته بعد أن انتشرت رائحته في القرية. اتفقنا كلّنا أن سبب أزمته كثرة معاشرته لبنات الجيران في طفولته، فلم يكن يلعب معنا «البيس» و«الدقبة» و«النقرة» ولا كرة القدم، مرة واحدة وقف قريبا منا فخاطبه فتحي الفتى الشرير بقوله : أيهما أوسع يا زوزو ثقبك أم ثقب الدقبة ؟؟!! وانفجرت الأفواه ضاحكة، يومها استجمع لطفي قواه وردّ بعنف : ثقب أمّك أوسع. ويا ليته لم ينطق فقد استشاط فتحي غضبا من الاهانة وأقبل عليه يلكمه في وجهه وفي بطنه وكان لطفي يبكي ويصيح دون أن يتقدّم أحدنا إلى نجدته . منذ ذلك اليوم لم يعد لطفي يطيق الوقوف معنا .كان يقضي الوقت مع ابنة عمّه الخيّاطة، أو مع سلمى إبنة الجيران البائرة وراء منسج المرقوم.

حدّثنا أحدهم أنّها لا تتردّد في دعوته كي يحكّ لها ظهرها وهي تستحم وكانت من دون الفتيات ترفض الذهاب إلى الحمّام حتّى لا تشاهد النسوة تهدّل نهديها وجفاف بشرتها والتجاعيد التي بدأت تنتشر في أنحاء جسدها. كان لطفي، الذي يحلو له أن تناديه لطيفة، مستودع أسرارها. عندما كبر زوزو وانتقل إلى الثانوية ودخل المبيت بالمعهد الثانوي بكته سلمى أكثر من أمّه، كانت تنتظر عودته كل سبت بشغف كبير فتهرول إليه لتحمل معه حقيبته وتفتك من أمّه ثيابه كي تغسلها وهي تحلف بأغلظ الإيمان : والله لن يغسل ثيابه غيري.

في المبيت أصبحت مغامرات لطفي الجنسية علنية، ولكنّه مع ذلك لم يهب إسته لتلميذ. كان لا يرضى إلا بأيور القيّمين. وكثيرا ما ضبط بعضهم يجامعه في ركن مظلم من المبيت أو في دورات المياه. مختار القيّم عشق لطفي زوزو عشقا جنونيا حتّى أنّه كان لا يقوى على فراقه أيام الآحاد فيركب درّاجته النارية الحمراء ويأتيه إلى قريته فيجامعه في البيت أو يأخذه وراءه إلى المقبرة. فتحي الذي يكنّ للطفي كرها شديدا منذ تلك الواقعة هو الذي اكتشف مغامرات لطفي في المقبرة. كان قد شاهد مختار يدخل القرية من جهتها الجنوبية واتجه بدراجته إلى بيت لطفي ورآه يتحدّث إليه وراء الصبّارة الشوكية وهو ماسك بيده. قال لنا فتحي يومها إن لطفي كان يقترب أحيانا من مختار ثم يلتفت إلى البيت كأنه يخاف أن يباغته والده أو أمّه. لذلك قرر فتحي أن يستمر في مراقبة البيت في تلك القيلولة الحارقة. وأثناء انتظاره رآهما يركبان الدراجة وينطلقان، أراد اللحاق بهما لكن

الدراجة كانت مسرعة فظل يراقب سيرها من بعيد فرآها تتجه نحو المقبرة وشاهد لطفي ومختار ينزلان ويأكلهما شجر الأكاسيا. عندها هرول فتحي إلى المقبرة... عندما وصل إلى الباب وجد الدراجة رابضة في الركن فثقب لها العجلة الخلفية وأخذ يتسلل كالقطّ بين الشجر الأخضر...

منذ ذلك المساء أصبحت فضيحة لطفي خضراء وإسته أصبح مباحا لكل الأيور الدقيقة والغليظة والبيضاء والملوّنة قبل أن يهرب إلى سوسة حيث أنهى دراسته. وصلتنا أخبار منذ سنين أنّه أصبح «شخصية» كبيرة. بعضهم قال إنّه رآه في الأخبار يكرّمونه ويتسلّم وساما في مؤتمر دوليّ للإعلام.

يومها قال فتحي ضاحكا كعادته :

زوزو كان يعطي خديجة لكل من هب ودب حتّى للمتسوّلين إلا للنيقرو، يقول إنه لا يحب الوصفان، متاعهم كبير.

رغم أنّني لم أرغب في إست زوزو أبدا فإنّني اليوم أتساءل هل كان سيقبل بي لو عرضت عليه شيئي ذلك المأبون أم سيرفض كما قال لطفي جراده ؟!!!

ما هذه الأفكار الغريبة التي تراودني في هذا الليل ؟! ليس هذا هو الموضوع الذي أبحث فيه. يجب أن أتساءل هل يكون صائد النساء مأبونا هو الآخر ؟ لماذا لا يكون مأبونا كسدت سلعته أمام تبرّج النساء وكثرة المومسات وانتشار دور الدعارة والفضائيات المختصة ؟!

احتمال قوي. إن التركيز على المؤخرة بالذات يؤكّد أن المشكلة في ذلك المكان بالذات، إذن احتمال أن يكون الجاني يكنّ عداوة للنساء بدأ يتراجع وتتركّز بؤر التوتّر من جديد في موقع الإست. ولكن إذا كانت المشكلة فعلا مع المؤخرات وكان الجاني مأبونا لماذا يركّز على مؤخرات النساء دون الرجال؟ أليس لبعض الرجال مؤخرات أعظم بكثير من مؤخرات النساء ؟ ومن أدراني أنه لم يعتد على مؤخرات الرجال؟ الصحف تؤكّد أن عدد المصابين أكثر من عدد الحالات المعلن عنها لأن كثيرا منهم فضّل عدم الإعلان عمّا أصابه خشية الفضيحة. المسألة حسّاسة جدّا، من يجرؤ على كشف إسته للمحقّق وللقاضي ليرى جرحه وكيف للقاضي أن يحكم دون أن يرى بأم عينه آثار الجريمة ؟! نحن نخجل من الطبيب عندما يكشف ذلك المكان الصغير ليحقننا فما بالك بمن يأمرنا بكشف كل الإست على الملإ ليراه الشهود والمدّعي العام والنيابة ومحامي المدعى عليه وكل الحاضرين !هل ستكون الجلسة علنية أم مغلقة ؟ أنا أخجل بهذا الجرح في وجهي فما بالك لو... لأوّل مرة أشعر أنّي أحسن حالا من غيري ! جرحي في وجهي وجروحهم في...

لكن لا أحد يعلم بهم إن خيّروا إبقاء جروحهم في السر بينما لا أقدر إخفاء هذا الجرح الدميم. اللعنة، سُرقت مني الفرحة من جديد، أحيانا أتمنى أن أكون أقل ذكاء لكي لا أشقى بهذا الوعي.

يبدو أن بو لحية عاد من تيهه،أسمع خطواته على السلّم. لا أريد أن أرى وجهه هذا المجنون الذي بدأت أقرف منه.سيسألني أسئلته الغريبة عن ابن خلدون. لأرتمِ في فراشي قبل أن ينهال عليّ بحماقاته.

3

لماذا لا يكون الجاني امرأة ؟

تؤكّد الصحف استنادا إلى الشهود أن الجاني كان يلبس خوذة ويركب دراجة نارية حمراء، وأكّد استطلاع للرأي أن معظم الدراجات الحمراء من ذلك الصنف المذكور على ملك فتيات من الوسط الراقي. بل إن واحدة من الضحايا قالت إنها سمعت صوتا أنثويا يصيح بها قبل أن يخترق المشرط سروالها الجينز ويذبح مؤخرتها وقالت أخرى – قبل أن تتراجع عن شهادتها – إن حجم الجاني كان صغيرا مما يرجّح أنه شاب ضعيف البنية أو فتاة. أما بقية الضحايا فقد أكدن أنّه ليس هناك من شك في أن الجاني رجل، «لا يمكن للمرأة أن تفعل ذلك بامرأة مثلها، هذه العدوانية لا تكون إلا عند الرجال، إنها سادية الرجال لا شك في ذلك»، هكذا حلّلت القضيّة الآنسة مريم غشّام أستاذة علم النفس بكليّة العلوم الإنسانية، أطالت في مقالها الحديث عن السادية ومفهومها :

«...جاء مصطلح السادية الذي دخل لغة العامة نسبة إلى النبيل الفرنسي المركيز دوساد (marquis de sade 1740-1814) **لقد بدأ ساد سيرته المنحرفة عندما استمال صبية من الشارع وأحضرها بيته الصيفي ثم قيدها هناك ونزل بها ضربا بالسكين. بعدها قتل امرأتين من**

بائعات الهوى عندما قدم لهما جرعة من «الناعوظ» السام. لقد قاده هذا إلى سجن دام 27 عاما. لا يمكن أن يكون الجاني إلا رجلا، لو عدنا إلى كتب علم النفس التحليلي لرأينا أن السادي يستمد لذته من إذلال «الشريك» ورميه في بؤرة الانحطاط والقذارة، ولأنه توجد سادية فكرية خالصة أيضا وقد تكون عبر رسائل التهديد مثلا فإني أرى أن الجاني قد حقق هذا أيضا عندما نشر الرعب في صدور كل النساء، لذلك فجريمته قد انتشرت في المجتمع الآمن بأسره...»

سمعت أن الأستاذ بيرم الرابحي من نفس القسم ردّ عليها في مقال مطوّل وفي نفس المجلة التي نشرت فيها مقالها وأكّد أن الاحتمال الأرجح أن يكون الجاني امرأة لأن المرأة في حالات اليأس تصبح أكثر عدوانية من الرجال وتتجه عدوانيتها أساسا نحو بنات جنسها لأنّ المرأة الفاشلة لا يذكّرها بفشلها إلا المرأة الناجحة واستند الأستاذ في تحليله إلى أن معظم الضحايا من الفاتنات ويبدو أن الضحايا ناجحات في حيواتهن و«هذا ما يرجّح أن الطعنة جاءت من داخل الأسرة الأنثوية» كما أكد الدكتور الرابحي أن السادية ليست صفة ذكورية كما تريد الأستاذة مريم غشّام أن توهم الرأي العام وقال : إن «**السادية النسائية تأتي من النساء الباردات جنسيا، كما أن عدم الإشباع الجنسي عند المرأة يمكن أن يتحوّل إلى كراهية وانتقام وإلى نزوة في التخريب حتى يصل الأمر إلى سادية أحيانا**». لم يفت القراء ما لمّح إليه الدكتور من المعرفة العلمية المتواضعة للأستاذة مريم غشام فقال إنه ليس من حق أي شخص أن يفتي في مسائل علمية دقيقة خاصة إذا كان مازال بعد طالب علم، وقد حلّلت الصحافة ذلك بأن الدكتور الرابحي يلمّح إلى أن

الأستاذة مريم غشّام لم تنجز أطروحتها بعد وأن بحوثها السابقة لم تكن بمستوى يؤهلها للتدريس في الجامعة. هنا دخل الجدل في مأزق آخر بعيدا عن القضية وصل حدّ التقاذف فقد أشار الدكتور الرابحي إلى الحالة المدنية للأستاذة مريم غشّام التي مازالت عزباء رغم أنها تجاوزت الأربعين وردّت عليه الأستاذة غشام باتهامه بالانحراف الجنسي مع طلبته. الأسبوع الماضي ردّ الدكتور الرابحي متهما الأستاذة غشام بالجنسية المثلية وأنه ضبطها في قاعة الأساتذة في وضع مساحقة مع منظّفة دورة المياه، وختم الدكتور الرابحي مقاله بالإعلان عن توقيف جدله مع الأستاذة مريم لأنها، حسب رأيه، ليست بالمستوى الذي يؤهّلها للجدل العلمي الراقي وأن عليها أن تعرض نفسها على دكتور نفساني قبل أن تعود إلى تدريس علم النفس وأنه لولا سمنتها المفرطة لما استغرب من أن تكون هي الجانية وحذّرها، بأسلوبه السّاخر المتهكّم، من أن تكون ضحيّة ذلك المشرط فهي تحمل بعض مواصفات الضحايا المستهدفات ويقصد كبر الإست طبعا لأنّها لم تكن جميلة.

بعد تلك المقالة لم تعد الأستاذة مريم غشّام تنزل من سيارتها إلا أمام بيتها وتكثر من الالتفات وراءها وكأن هناك من يُصْبعها طول الوقت.

يردّد الطلبة الأشقياء أنها أصبحت عصبية جدا، وأنّها لم تعد تنهض من مكتبها وأصبحت تملي درسها وهي جالسة ولا تستدير إلى «السبورة» أبدا. وقالوا إنها لبست معطفها «القطيفا» الثقيل في بداية الخريف رغم أن الطقس مازال حارا والصيف لم يرحل نهائيا.

لا أنكر أني تعلمت كثيرا من ذلك الجدل العجيب بين الأستاذة مريم غشام والدكتور الرابحي فقد علمت أن جالة ابن الحجّاج صديق بو لحية الذي يحلو له دائما أن يتعرّى في النافذة لتراه النساء تسمّى حالة «العرض والتعري» وأطرف ما عرفته أن هذا الصنف من الرجال عاجز جنسيا على عكس ما يبدو «**فلو أن المرأة مثلا التي يلح عليها استجابت إلى طلبه في الوصال لاختفى تهيجه سريعا و سيظهر بالتأكيد أمامها كقاصر جنسيا، انه لا يفكر بتاتا ببناء شراكة حقيقية، هدفه هو التحريض و الإثارة المفاجئة وغير المرتبطة**».

عندما قرأت هذا الكلام في تلك السجالات أشفقت على ابن الحجّاج ثم تساءلت أيكون هو الجاني ؟

كل الذين يحيطون بي مؤهّلون لارتكاب الجريمة، بو لحية مثلا أقواله متضاربة بشكل غريب، مرّة قال لي إنّ والده مات مع أمّه بعد أن تهدّم بيتهم عندما سقطت عليهم شجرة الخروب... حكاية غريبة، كنت أستمع إليها كمن يستمع إلى خرافات الأجداد، منذ أيام قال لي إن والده مات في الحقل عندما انفتح الفتق الذي يعاني من أوجاعه منذ سنين، وعندما قلت له انك رويت لي حديثا آخر عن موت أبيك غضب وتركني لكي يختلي بكتبه. لم أعد أفهمه ولا أدري ما الذي أصابه. يبدو أنه بدأ يفقد ذاكرته تدريجيا. أشكّ في أن تلك الكتب الصفراء التي يعود بها كل ليلة ويظل يقرأها وينسخها حتى الفجر هي التي ذهبت بعقله.

الكتابة في السرير مقلقة سأنام. لا أدري لماذا حملت هذا الدفتر اللعين معي إلى الفراش. بو لحية دخل غرفته منذ ساعة و لم أعد أسمع صوته لكن الغرفة مضاءة، هذا يعني أنه يجالس دفتره. كم أتمنى أن أقرأ ما يكتب هذا الرجل الغريب !! الفضول يقتلني.

3
من كراسة بولحية
قصّة خديجة التي هزّت العالم

لقد حسمت أمري لن أكتب شيئا بعد اليوم عن ابن خلدون. أصبحت متأكّدا أني أتوهّم. لا يمكن للتماثيل أن تتكلّم وتتحرّك ويصيبها القمّل. التماثيل هي التماثيل. عيب ما أفعله. لأدعها تنام في سلام. حتّى لو برّرت ذلك بأنّ الأمر مجازي ورمزي، ففي الحياة ما هو أعجب من هذا القصّ العجائبي. هذا الذي يذبح مؤخرات النساء مثلا، أليست قصّته أكثر عجائبية مما أقصّ ؟!! النيقرو شبه الأمّي الذي تحوّل إلى أرضة كتب ؟!! شورّب نفسه الذي لم أفهمه رغم الأشهر الطويلة التي قضيناها معا تحت سقف واحد ؟! مازلت أذكر يوم اقتحم حياتنا كالكابوس، كنت أنا والنيقرو كعادتنا في المطبخ نقلي البيض للعشاء، وكنت ألوم النيقرو لأنّه لم يجهّزه، فهو يقضي اليوم كاملا في البيت وعلى الساعة الخامسة يركب المساء لحراسة مصنع المقرونة، كان يقول إن المصنع لا يحتاج من يحميه لأن الناس كرهت المقرونة، هو لا يطيق الحديث عنها وحرمني منها أكثر من مرّة ، كان يقول لي «اطبخها في الليل بعد أن أترك البيت ثم افتح كل النوافذ حتّى تخرج رائحتها بلا رجعة فلا تقرفني

عندما أعود»، من حسن الحظّ أنه عاد إلى الشغل ليلا بعد أن استجاب رئيس العمال لرسائل الشكوى التي يثقل بها صندوق الاقتراحات في المصنع، قال إنه لم يعد قادرا على النوم ليلا لأنه تعوّد على السهر لذلك كان يضبط نائما في النهار في كشك الحراسة. عوقب أكثر من مرّة وكان يدافع عن نفسه بنفس الحجّة «لم أعد قادرا على العيش بالنهار» يومها عاد سعيدا وهو يخبرني بأن حليمة عادت إلى عادتها القديمة وأن الليل عاد إليه. النيقرو يعاني من ضعف نظر، يقلقه الضوء. قلت له إنك تشبه بطل «الغريب» لألبار كامو فأصرّ أن يقرأ الرواية ومنذ ذلك اليوم سقط في عشق الروايات وازداد ولعه بالكتب بعد أن فتح شورّب خدّه وتسبّب في طرده من المصنع.

قال لي يومها النيقرو إنه استيقظ متأخّرا، وإنه كان تحت وطأة كابوس : «رأيت كأنّ طائرا بشعا حطّ فوق صدري وأخذ ينقر وجهي وجسمي حتّى بقر بطني وأخذ يسحب أمعائي، يلوكها وقتا ثم يرمي بها على وجهي... كابوس بشع قمت على إثره أتقيأ فلم أستطع أن أفكّر مجرّد التفكير في الطعام ...»

يبدو لي الآن أنّني في تلك الليلة كتبت قصّة المخّاخ.

المهم أن في تلك اللحظة التي روى لي فيها النيقرو حلمه وأنا أنشغل بقلي البيض، طرق الباب. ذهب النيقرو ليستطلع قارعه ثم عاد وقد ازداد وجهه اسودادا وتمتم «الكابوس بالباب». كان حقّا يرتجف. تركت المقلاة على النار وخرجت :

رجل غريب بشقرة بربرية بشعة... يشدّ شعره الأصفر الطويل ذيل حصان... وشم الثعبان المخيف يطل من تحت القميص الضيّق الذي عقد طرفيه فوق صرّته وطوى كمّيه لتظهر تضاريس عضلاته المفتولة تحزّمها عروق خضراء نائتة، بينما تكشف فتحة القميص صدرا رياضيا أملط يزيّنه خيط أسود سميك يتدلى منه رأس فرعون وصليب معقّف. وجهه طويل يشبه وجه جمل وشفتاه الغليظتان تجعلانه وحشا آدميا أشقر...

بعد لحظات من الصمت سألني إن كنت أنا مالك المنفوخي الملقب ببو لحية وعندما قلت له «أنا هو» ؟ دخل البيت وهو يقول مبتسما ابتسامة خبيثة «لماذا لا ترحّب بي إذن،ألم تكن تنتظر أحدا ؟» ركضت وراءه إلى داخل البيت «لا... لا أنتظر أحدا ! من تكون سيادتك ؟!!» هزّ رأسه الكبيرة : «تذكّر جيّدا» وأخذ يعبع ماء القارورة البلورية التي كنت أحرم النيقرو من الشرب منها. قلت له عندما همّ بالشرب منها : اتركها وخذ غيرها لا أريد أن يشاركني قارورتي أحد، هاهو هذا الغريب يضعها بين شفتيه الكبيرتين المقرفتين دون أن يستأذن ودون أن يستعمل الكأس التي أضعها بجانبها، قلت وأنا أهتزّ غيظا «من أنت أيّها الرجل ؟ إن لم تقل من أنت وماذا تريد سأتّصل بالشرطة !!»

ترك القارورة التي أجهز على مائها واستغرق في الضحك وقتا «يبدو أنّك نرفوزي برشا، لا أدري كيف سنتعاشر؟»

و هل تنوي أن تعاشرني ؟! من أنت ؟

عندما انتهيت من طرح السؤال هذه المرّة اشتعل في ذاكرتي الاحتمال، قلت مغمغما «هل أنت قريب سفيان ؟!!» ابتسم ابتسامته المقرفة مرّة أخرى وأجاب برأسه : نعم، تمالكت نفسي من الصدمة وقلت «ولكنك تأخّرت وسكن مكانك مستأجر آخر».

عندها التفت غاضبا «آشكون اللّي داعيه عليه أمّو اللّي سكن في عوضي خلّيني نفشّخلو الراس متاعو. وأنت كان لازم تستنّى شويّة حتّى نجي»

– ومن يدفع معي إيجار البيت ؟!

– كنت سأعطيك ما دفعته وحدك. هيا اطرد هذا الشيء وأخبرني كم دفع ؟

– لا يمكن أن يحدث هذا، الرجل استأجر البيت بشكل قانوني. لا يمكنني أن أطرده، بالإضافة إلى أنّي ارتحت له.

– لكنّي ما هضّمتوش !

– هل تعرفه أنت ؟

– موش هاك المحماش اللي حلّي الباب وفصع من قدّامي اتقول شاف غول ؟!

– هو ذاك، ولا يهمّ أن ترتاح له، المهم أن أرتاح له أنا، أنا من يشاركه البيت.

في تلك اللحظة أطل النيقرو وعلامات الرّعب مازالت تحتلّ وجهه. تفحّصه الزائر جيّدا ثم قال «مش مشكلة خلّيه ثالث، هاو نيّه ومسكين، هاني خارج ومش انجي امّخّر

ماتستنّونيش عندي مفتاح، سفيان أعطاني نسخة، ما حبيتش نستعملو اليوم خاطر نعرف الأصول».

رمى بحقيبته ومعطفه المترب وخرج مقهقها لأدخل مع النيقرو في كابوسه.

كم هي مظلمة تلك الشهور التي قضّيناها مع ذلك الوحش الذي اقتحم بيتنا بالقوّة. عندما أتذكّره اليوم أتذكّر ذلك الثعبان الذي احتل بيت طفولتي وجعلني وعائلتي نبيت في إسطبل البهائم. كان الثعبان يتجوّل طول الوقت بين أعمدة السّقف كأنّما هو المالك ونحن الضيوف الثقلاء... يداعب بلسانه المسموم سعفة النخيل اليابسة ويطلق أحيانا صفيرا مزعجا، كان ذلك قبل أكثر من عشرين عاما وقبل أن تنزل تلك الصاعقة التي أخذت معها أمّي والبيت وظلّ أبي زمنا يبكيها تحت الخرّوبة التي يتبرّك بها ويقول إنها تحمينا .أذكر أنه قام يوما غاضبا وحمل فأسه واتجه نحو الخرّوبة العملاقة وراح يقطعها، لكنّ الفتق الذي كان يعاني منه لم يمهله فانهار تحتها يتلوّى من الألم وفارق قبل أن يصل الأهالي لإسعافه، جارنا الذي كان أول الواصلين إلى الخرّوبة قال إنّه ملسوع لأنّ جثّته ازرورقت... قال إنها لدغة أفعى أو ثعبان لكنّه استغرب من موضعها، كانت الإصابة في الجانب الأيسر من المؤخّرة.

الثعبان منذ شهور يحصد مؤخرات النساء بمشرطه، لا أحد تعرّف عليه، الضحايا بالآلاف والشوارع تكاد تخلو من

النساء، منذ أسابيع لا أرى في الشارع الكبير غير العجائز. ما لم أفهمه كيف لا تخشى تلك السائحات المتبرّجات واللاّتي تطلّ أطراف مؤخراتهن من تحت سراويلهن القصيرة جدا حمراء من وهج الشمس على الشيواطئ التونسية ؟!! أحيانا أقول : انتحاريات وأحيانا أتساءل كيف يمكن أن تدفن الواحدة نفسها في البيت وكلّ جريمتها أن لها مؤخّرة جميلة ؟!!

يقال إن مساجد المدينة كان يتردد فيها جدل كبير حول تأويل الآية الكريمة ﴿نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنّى شئتم﴾ وكانت صلاة الجمعة تنتهي كل مرة بمعركة دامية بين المختلفين حول معنى الآية ومعنى «أنّى» تحديدا، والتي قيل إن معاجم اللغة تؤكّد أنها تفيد «الكيف» و«الأين». لذلك ترجّح وكالات الأنباء الأجنبية أن الجاني متطرّف إسلامي حاول حل المسألة بطريقته فعمل على تشويه مؤخرات النساء حتى يزهد فيها الرجال ويعودون إلى آية الله...

عرض موقع جماعة متشددة على الإنترنيت صورة ملثّم وهو يجلد مؤخّرة سائحة أجنبية وقع اختطافها في بغداد قبل أن يذبحها من الوريد إلى الوريد ويتلو بيان المقاومة الذي ذكر فيه إن جماعته تتعاطف مع المجاهد الذي ظهر في تونس ليحارب الفسق والفجور ووصفه بالمجاهد الأصغر.

استضافت إحدى الفضائيات، المعروفة بمعاداتها للإصلاحات الاجتماعية والحقوقية التي حصلت في تونس منذ الاستقلال، واحدا من المتشددين وسألته عن رأيه في القضيّة فقال : «لقد ذهب التونسيون بعيدا في هتك المقدّس فلم يكفهم منع تعدّد الزوجات وما أغدقوه على المرأة من حقوق عارضوا بها أحكام الشريعة، وصل بهم الأمر اليوم إلى تسمية المؤخرة باسم إحدى زوجات النبي، بل أقرب زوجاته إليه. وهذه والله من علامات الساعة ! ولابد أن ينزل الله عقابه على هذه الأمة التي تجاوزت في فجورها قوم لوط «تجدر الإشارة إلى أن الإرسال انقطع وعاد بعدها المخيم ليعتذر ويقول إن الأمر خارج عن نطاقهم وأن زحمة الاتصال للمشاركة في البرنامج أحدثت تشويشا على القمر الصناعي. ألغيت بعد ذلك المداخلات الهاتفية واكتفي بالرسائل الالكترونية التي تصل البرنامج عبر شبكة الانترنت.

نقلت الفضائية نفسها في موجز الأخبار الذي تخلّل البرنامج، مسيرة سلمية لنساء المكسيك خرجن فيها تضامنا مع المرأة التونسية منددات بما تتعرض له أجسادهن من قمع معتبرات المجامعة الحبرية حرية شخصية وناديْن بتنفليم مسيرات مساندة مماثلة في كل أصقاع العالم.

نقل عن متحدّث باسم منظّمة الصحة العالمية أن المنظّمة متخوّفة كثيرا من مستتبعات هذه الأزمة بعد أن وصلتها تقارير تشير إلى أن عدد الولادات في تونس يتزايد بشكل مفزع. المحلّلون أرجعوا ذلك إلى إعراض الرجال عن عادة تغيير الرحل.

أفتى أحد الشيوخ المتشددين بتحليل ذبح مؤخرات النساء الخارجات عن شرع الله في بلاد الإسلام وقال إن ثواب ذبح مؤخرة فاجرة واحدة بمائة حسنة يوم القيامة.

ذهب آخر إلى تكفير كل من اتبع مالك بن أنس لأنه، حسب رأيه طبعا، هو الذي أحل تغيير الرحل في المجامعة. وأضاف إن كل المنظّرين للفجور خرجوا من تونس وذكر أسماء منها التيفاشي والتجاني والنفزاوي، واعتبر أن على المسلمين أن يمتنعوا عن الحج إلى القيروان هذا العام في المولد النبوي الشريف احتجاجا على ما وصل إليه حال الإسلام في تلك الأمة.

كذّبت وكالة تونس إفريقيا للأنباء ما أوردته إحدى صحف المعارضة في الخارج من أن «جمعية أحبّاء خديجة» منعت من مزاولة نشاطها، ولم تُمكّن من تأشيرة العمل رغم أنها استوفت الشروط القانونية التي حدّدها قانون الجمعيّات، وأكّدت الوكالة استنادا إلى تصريح مسؤول كبير أنّه لا وجود لجمعية بهذا الاسم وإن الأمر لا يتعدى محاولة تشويه دنيئة قام بها بعض الخونة الناشطين بالخارج والمتاجرين بأوطانهم.

4
المهمّة

استدعاني اليوم رئيس التحرير وقال لي، وهو يدير بين أصابعه فتّاحة الورق الحادّة : «ستعود إلى أسرة تحرير الجريدة». أخبرته أنني كتبت قصصا مثيرة عن ابن خلدون ستعجب القرّاء – كان توقّف عن نشر قصصي منذ أن اتّصل به رجل مهمّ يحتجّ على ما جاء في قصّة «سيدة الروتند» التي نشرتها الجريدة في ملحقها الثقافي الأسبوعي – نظر إلي نظرة استهجان وقال لي بصوته المخنّث : هل جننت أيها الرجل، مرّة تكتب لي عن مومس ومرّة تريدني أن أنشر لك قصصا عن ابن خلدون والبلاد «خايضة»؟

– ماذا تقصد يا سي لطفي ؟!!

– أقصد القنّاص، الشيطان الذي حوّل العاصمة إلى جحيم يا سي... ؟

– وما دخلي أنا بتلك القضايا ؟ لم أكتب في صفحة «قضايا ومحاكم» أبدا، عندك هندة ، أليست هي من يكتب في تلك الصفحة منذ سنوات ؟!

– أنت موقوف عن العمل منذ أن كثر إهمالك في إصلاح المقالات وبعد أن حذفت الصفحة الأدبية. هذه فرصتك كي

تعود إلى التحرير. أمّا هندة فقد كانت إحدى ضحايا القنّاص إنها ترقد في مصحّة خاصّة بالمنار، وجدوها تنزف أمام المبيت الجامعي.

– ولكن ما هو المطلوب منّي ؟!! أنا لا أفهم شيئا مما تلمّح إليه ؟!!

– باختصار، اخترناك حتّى تقوم بالتحقيق في هذه القضيّة وإجراء حوارات مع المختصّين، وأنت بأسلوبك القصصي الرائع يمكن أن تحقّق نجاحا كبيرا لك وللجريدة. ها ؟ ماذا قلت ؟ موافق ؟

لم ينتظر إجابتي. سحب من الدرج ملفّا محشوّا قصاصات وأوراقا وصورا وقال : خذ، هذا ملف كامل للقضيّة يمكنك أن تراجعه لتكون ملمّا بكلّ صغيرة وكبيرة، ستكون انطلاقتك الفعلية من هذه القضية.

صافحني بيده المتعرّقة وضغط على كفّي كعادته مبتسما. عندما وصلت الباب ناداني ملوّحا بفتّاحة الورق الحادة : سنضاعف لك الأجر إن نجحت ولكن القضيّة تحتاج إلى شيطان يا ... ملاك !

ها أنا الآن أمام هذا الكمّ من المعلومات عن شبح أحمر يظهر في لحظات ليخلّف وراءه صراخا ومؤخرات تقطر دما !

أشعر بالقرف، سأغادر هذا المكتب وهذا الملف الغريب الذي ينزّ صورا لآلاف المؤخرات المشوّهة، تناديني صور الكتّاب التي علّقها نور على حائط غرفته، عندما أدخل غرفته أشعر أني أدخل محلاّ للعطور، الروائح الطيبة لا تغادرها حتّى وهو غائب منذ

شهور، العطور تسكن المكان، هاهي الصور العملاقة في إطاراتها المذهّبة وتحتها الأسماء مكتوبة على بطاقات صغيرة :

جان جنيه يمشي منكّس الرأس بصلعته الشهيرة، أندريه جيد، أوسكار وايلد، كروب، ماكدونالد، شوبنهاور، ميشال فوكو، ايلينبورغ، صورة بقلم الرصاص لـ«رامبو»، هنري مللر، فيرلين، تينسي وليامز، بول بولز بوجهه الاجاصي الشاحب. لم أسأله عن سرّ إعجابه بهذه الوجوه ؟! أذكر أنّي سألته يوما عن سرّ ذلك الكتاب الذي يحشوه في جيب سترته .أجابني «يوميات لص» لجان جنيه، ضحكت يومها طويلا وقلت له «الحمد لله أني لا أمتلك شيئا وإلا كنت خشيت من أن تسطو علي آخر الليل» كان جناح من أجنحة مكتبته مغلقا بالمفتاح ولا يريد أن يقربه أحد من الزملاء أيام كنّا نجتمع عنده منذ سنوات ليطلعنا على آخر رسومه الغريبة، يقول إنّه يعشق مؤخرات كائنات سلفادور دالي لذلك لا يمكن أن ينام دون أن يقضي وقتا في تأمّلها. يردّد دائما «إنّ مكتبتك الشخصية مثل صندوق أدويتك لا يجب أن يراها أحد؛ الأولى تكشف طريقة تفكيرك والثانية تكشف أمراضك ونقاط ضعفك. لذلك لا أترك بين أيديكم إلا الكتب التي أريد وأحجب عنكم ما أريد هكذا يجب أن تتعامل مع عدوّك، وأنتم ألدّ أعدائي أيها الملاعين !».

سمعت أن دوائر حكومية تفكّر في طريقة أخرى لتجنّب مزيد من الإصابات التي تتعرّض لها النساء بسنّ قانون «الأخلاق الحميدة»، مسؤول مهمّ في الدولة لم ينف الخبر عندما

سأله أحد الصحفيين وقال : إننا سننشّط القانون فقط لأنّ موجود بالفعل لا تنس أنّك في بلد مسلم.

تساءلت يومها : هل نجح الجاني في تحويل أعدائه إلى حلفاء ؟!

مجلة «جون أفريك» JEUNE AFRIQUE نشرت تقريرا خطيرا حول تنفيذ قانون الأخلاق الحميدة وذكرت أن بعض أعوان الشرطة استغلوا هذا القانون للاعتداء على الحريات الشخصية للمواطنين بينما المشرط الحاد مازال يأكل المؤخّرات الآمنات.

وقد ورد في المجلة نفسها في العدد الثاني من نسختها العربية (جويلية /أوت 2004) أن بشرى بالحاج حميدة المحامية والمناضلة في مجال الجمعيات تحدّثت قائلة : «**لقد صدم المواطنون بتجاوزات هذه الحملة. وغمرت المكالمات الهاتفية مقرّ الجمعية التونسية للنساء الديمقراطيات إلى حد انفجار موزّع الهاتف**».

و لم يتجنّد لهذا الأمر محامو اليسار أو القريبون من رابطة حقوق الإنسان فقط. بل إن المحامي عبد الفتاح مورو الذي كان أحد الوجوه البارزة في الحركة الإسلامية قبل التخلّي عن كل نشاط سياسي، لم يتردّد في تأمين الدفاع عن شاب وفتاة اتهما بمسك أيدي بعضهما وتبادل القبلات في حديقة البلفدير بالعاصمة، وقد ترافع في المحكمة مبينا أن حقّ تردد شخصين غير متزوّجين على الأماكن العامة يمثّل «مكسبا اجتماعيا في تونس».

5

في ذكر غادة الكاميليا وانهزام القنّاص مساء السبت

ما أجمل هذا الشارع ! ما أشبهه بـ«حدائق الإليزيه» شارع باريس الشهير الذي حدّثني عنه بو لحية، بو لحية زار فرنسا مرّات أثناء عمله في صحيفة لابراس قبل أن يطرد شرّ طردة كما قال لي ذات ليلة. لقد أراحونا من تلك الأكشاك القذرة التي حوّلت العاصمة إلى سوق شعبية. يبدو البلاط نظيفا مثل المرآة والناس تمشي مستسلمة للنسيم البحري الذي يأتي من الجهة الجنوبية.

هاهي الماجورات، الفرقة الموسيقية اللطيفة من الشباب والشابات بملابسهم الحمراء الجميلة تطلّ من أمام المسرح البلدي تعزف موسيقاها الحماسية كعادتها كلّ سبت. هاهي أسراب العشّاق بدأت تهل، سيهبّون على المقاهي وقاعات السينما والمسارح، «بنات المعامل»، أيضا، لن يتغيّبن عن «السامدي سوار» سينزلن زرافات بكفوفهنّ الغليظة ووجوههنّ المشقّقة وربلاتهن المشعّرة تفوح منهنّ روائح العرق والمسك والشب والعطور الرخيصة التي يبتعنها آخر الشهر، بعضهنّ اشترى هاتفا جوّالا... سيهرعن إلى المقاعد الإسمنتية وسينهمكن في

إطلاق الرنّات من الهواتف النقّالة إلى أرقام مجهولة، سيتحلّق حولهنّ عمّال الحضائر بأيديهم الخشنة اليابسة. هناك صناديق حديدية حمراء عجيبة مغروسة في الأرض، لعلّها خزانات الكهرباء لا تجلس عليها إلاّ المومسات، تذكّرني تلك الصناديق بالصناديق السوداء في الطائرات هي أيضا حمراء أو برتقالية ولكنها مسكونة بأسرار السقوط، ربما لذلك سميت سوداء... آه لو أفكّ شفرة صناديق هذا الشارع لعلني أعثر على أسرار سقوط ساقطاته !!!

يوم السبت ينهزم القنّاص، الحبّ يقتل الخوف. رغم أنّه في عديد المرّات تمكّن من ضحاياه في يوم السبت فإنّه لم يتمكّن من تغيير شيء، ظلّت عشيّة السبت حفلة للحب يشارك فيها كل التونسيين بلا استثناء. هاهي سراويل الجينز الضيّقة تعود تكتسح الشارع وهاهي أمواج المؤخرات المركّزة بكل الأحجام والألوان وهاهي النهود المندفعة تتحدّى العالم، كثيرها نسي حاملات الصدر وخرج حرّا ينقر بحلمته القمصان الشفافة القصيرة، ماذا ستفعل أيها القنّاص التعس أمام هذا الطوفان من الأجساد المتحابّة، أكاد أشفق عليه فهمّه كبير !!

فكّرت أي جحيم يمكن أن نعيشه لو اختفت النساء من هذه المدينة أو من أي مكان من العالم ؟!!

تذكّرت آخر امرأة أحببتها في صمت، عاهرة الروتند كما يسمّيها الجميع، نعم تلك المرأة المكتنزة التي تجلس في المقهى منذ

الصباح الباكر تمصّ أصابعها وتغمز بعينيها للوجوه المنكسرة على كؤوس البيرة الصفراء. يومها وقفت بجانبي تلمس موضع كليتي بركبتها السمراء التي تطلّ من تحت فستانها السماوي القصير، استأذنت في الجلوس وجلست دون أن تنتظر إجابتي. قالت لي يومها : «لاحظت أنّك تبدو حزينا وحدك فقرّرت أن أهبك بعض المرح لأنّي بدوري أشعر بالاختناق وأريد أن أتحدّث مع رجل غريب».

سألتها : ولماذا رجل غريب بالذات ؟!!

– بالنسبة إلي دائما... التعرّف إلى رجل غريب مغامرة شيقة لأنّها محفوفة بالمفاجآت، يمكن أن يكون ملاكا ويمكن أن يكون شيطانا، يمكن أن يكون فحلا ويمكن أن يكون عنينا، يمكن أن يكون ويمكن أن لا يكون...

– ولكن هذا يعرّضك إلى الخطر أحيانا ؟!

– بل قل دائما لأن الحملان قليلون جدا في هذا البلد، فحتّى المخنّثون ترى منهم العجب، هل تصدّق أنني بتّ يوما مع مخنّث؟!

– مخنّث؟!!

– نعم، يومها لم أجد أين أبيت ليلتي كان الخلق منشغلين بالحرب، لا يريدون لا قبلا ولا نهودا، عند آخر الليل بدأ المقهى يفرغ من روّاده وأخذ البرد يلسع أطرافي، مرّ بجانبي رجل قصير يحمل حزمة من الجرائد، كان حليق اللحية بدأ يفقد شعر رأسه، أصابعه التي تمسك بالجرائد كانت تبدو طريّة، عندما سبقني كان

ينظر إلى أطرافه، مؤخرته التي حشرها في سروال القماش الليّز بدت لي أنثوية، وقبل أن يمضي بعيدا صحت فيه : ها، آش بيا الرمّان غضبان ؟ التفت إلي، هزّني من تحت إلى فوق، وعاد إلى مشيته المخنّثة، ركضت وراءه «عندك خمسة لاف وتشيخ» التفت إلي مرّة أخرى وظهرت ملامحه الأنثوية الطاغية، كانت وجنتاه محمرّتين ربّما من البرد، قلت له وأنا أسحب منه حزمة الجرائد التي سقطت على الرصيف «تهزّني نبات معاك الليلة؟» وقبل أن يجيب واصلت «بْلاشْ، نْبَاتْ مْعَاكْ بَرْكَا ونخْرُجْ بكْري». التفت إليّ «تخرج بكري ؟» قلت مجيبة «بكري بكري كيما تحبّ».

– هل ذهبت معه فعلا ؟

– طبعا، كانت سيارته قريبة، ركبنا وطارت بنا إلى المنار، كان يمتلك فيلا جميلة يحرسها كلب ضخم من تلك الكلاب التي تنزل لعابا طول الوقت. ما إن شاهدته حتّى أصبت برعب شديد، فأسرعت إلى الداخل. كانت الفيلا من الداخل قصرا مفروشا بشتّى أنواع الزرابي وكانت تزيّن الجدران لوحات جميلة لنساء كلّهن عاريات. في الركن كانت هناك مكتبة عملاقة فيها مجموعة من الكتب الملوّنة والمجلّدة عرفت بعد ذلك أنها كتب جنس وأخرى تحتوي على لوحات أشهر الرسّامين. تركني ودخل غرفته ليعود في سروال قصير وقميص حريري وردي. لم يفاجئني كنت أتوقّع أنّه مخنّث منذ أن مرّ بجانبي بالروتند. سألته إن كان له طعام فقد وخزني الجوع في ذلك الليل بعد أن أمضيت اليوم في المقهى أشرب ما يجود به الزبائن

القدامى من بيرة، كانوا يرسلونها مع النادل ويشيرون لي معتذرين، سيعودون باكرا لمتابعة الأخبار.

أشار لي بالبرّاد، فتحته فوجدته مزدحما بألوان من العجائن واللحوم والغلال، أكلت حتّى أصبت بمغص، كان الأكل باردا. طلبت منه أن أنام، «خذي الغرفة التي تريدين» قال وانهمك في حزمة الصحف التي حملها معه من الشارع، دخلت الحمّام كان على خلاف كل غرف الفيلا قذرا ومكتظّا بأشياء غريبة، في ركن منه كانت تقف درّاجة نارية ضخمة غطّاها بستارة من البلاستيك. خرجت بعدها أبحث عن غرفة للنوم، وجدت واحدة كانت جميلة جمالا أخّاذا حتّى أنني نسيت النوم وجلست أتحسّس أثاثها المخملي ساعة بعد ذلك استسلمت للنعاس الذي بدأ يثقل جفوني.

لم يمض وقت طويل لأدخل في كابوس مفزع... رأيت ذلك الكلب البشع الذي استقبلنا في الباب يتقدّم من سريري، يقف أمامي يتساقط ريقه على السجّاد، كان الرجل المخنّث يقف بعيدا يبتسم ابتسامته القبيحة. بدأ الكلب يقترب منّي وريقه مازال يتساقط، قفز إلى فراشي وراح يمزّق البيجاما التي كنت ألبسها، ثمّ انبطح علي وشلّ حركتي. كنت أريد الصراخ دون جدوى. كان لساني مقيّدا، راح الكلب الضخم يهزّني هزّا عنيفا وقد كنت أشعر بشيء ساخن كالمنجل يخترقني... لم أعد أعي شيئا، كنت دخلت في عتمة ثقيلة لم أتركها إلا صباحا. حمدت الله أن الأمر كان مجرّد كابوس. عندما نزلت من الفراش وقعت

قدمي على شيء لزج. مسحتها في السجّاد ودخلت الحمّام. لم تكن على جسدي أية آثار لما رأيته في تلك الليلة. اغتسلت وخرجت. اعترضني الرجل المخنّث بنفس الابتسامة القبيحة والبيجاما الوردية. قلتِ له «سأغادر» أجاب «يمكنك ذلك، الكلب نائم، بذل مجهودا كبيرا البارحة» !! عادت إليّ مشاهد الرعب من جديد : «ماذا تقصد ؟»

– لا أقصد شيئا لقد هاجم البيت البارحة لصّ فتكفّل به.

لقد أبلى بلاء حسنا.

عاد إلى ابتسامته، حملت حقيبتي اليدوية وتركت البيت راكضة، سمعته ينادي من خلف النافذة «ألن تأتي مرّة أخرى ؟» ركضت أكثر... ضحكاته العاهرة تلاحقني.

في ذلك المساء الذي حدّثتني فيه تلك المرأة عن قصّتها عرضت عليها أن تذهب معي إلى البيت، أخبرتها أني أقيم مع صديق وأنه لن يعود إلا مع الفجر، ويمكننا أن نقضي وقتا جميلا بمفردنا لكنّها رفضت وقالت إنّها لا تريد أن تفسد علاقتنا. ساعتها سخرت منها بيني وبين نفسي وقلت «عن أي علاقة تتحدّث هذه المومس ؟»

بعد تلك الجلسة أصبحت صباحاتي كلّها معها، لم يعد يشغلني شيء بعد أن طردوني من العمل بتهمة سرقة المقرونة، بعد أسبوع واحد من إصابة وجهي ناداني رئيس العمّال وقال لي «سعيد [لأوّل مرة يناديني باسمي الحقيقي الذي كدت أنساه فتشاءمت] وصلتنا أخبار أنك تهرّب أكياس المقرونة ليلا من الباب الخلفي

للمصنع، لذلك وقع توقيفك عن العمل وقد تدخّلت لكي لا يقع تحويلك إلى التحقيق، أنت تعرف أني أعزّك بشكل خاص».

كنت أعلم أنها تهمة باطلة لكنّي مع ذلك لم أحزن حملت خيبتي ووجهي المجروح وعدت إلى البيت. عندما اكتشفت مقهى الروتند وتلك المرأة الساخنة دائما نسيت العمل خاصّة بعد أن وصلني نصيبي من تركة والدي الذي توفي منذ سنوات، يبدو أن زوج والدتي أرغمها على بيع الأرض وأخذ نصيبها فباعت الأرض وقسّمت المبلغ الذي لم يكن كبيرا على أبنائها، وصلني المبلغ يوم طردت من العمل، سلّمه لي رئيس العمّال مع قرار الطرد، أذكر أني عندما فتحت رسالة أمّي التي تعتذر عن بيع الأرض، قلت «لأوّل مرّة تقومين بعمل جيّد يا أمّي»، كانت أجمل طردة يمكن أن تصادف رجلا مثلي.

قالت لي سعاد [امرأة الروتند] «أريد أن أذهب معك» فأجبتها بسرعة «لا أريد أن أفسد علاقتنا». فهمت قصدي فانهمكت في الضحك.

عندما رأيت صورتها في الجريدة، انتفضت فزعا وأنا أشدّ الصحيفة بأصابع مرتجفة :

تعرّضت إحدى الفتيات إلى اعتداء وحشي أمام الكوليزي بالعاصمة فقد اعتدى عليها شخص مجهول يركب دراجة حمراء بآلة حادة تسبب لها في نزيف أودى بحياتها، ومازالت التحقيقات جارية للكشف عن الجاني الذي ترك المكان بسرعة كبيرة، وقد أكّد لنا مصدر مسؤول

بالمستشفى الذي نقلت إليه أنه استقبل حالتين مشابهتين صباح ذلك اليوم، وأن الإصابات كلّها كانت في نفس المنطقة الحساسة من الجسم وهذا ما يرجّح أن يكون الجاني واحدا.

يومها شعرت أنّ القدر يحرمني للمرّة الألف من السعادة. كان الخبر جرحا آخر يسرق ما تبقّى من وجهي المسروق.

لم تكن سعاد مجرّد امرأة تبيع جسدها بمقابل. كانت أكثر من ذلك بكثير وقد تغلغلت في شراييني بسرعة عجيبة. عندما طلبت منها أن تحدّثني عن نفسها سألتني إن كنت قرأت قصّة «مارغريت أو غادة الكاميليا» وعندما قلت لها إني لم أفعل جاءتني صباحا بالرواية معرّبة وقالت لي «اقرأ هذه القصة ستعرف من أنا». انزويت في البيت يومين أقرأ بعدها عرفت أن سعاد أكثر من سعاد التي يأكلها السكارى في الروتند، إنّها سيدة هذه المدينة كلّها. وتغلغلت فيّ حتّى العظم.

عندما رحلت سعاد شعرت أن عظامي سحبت منّي فلم أعد قادرا على النهوض من فراشي لأسبوع وخفت من مصير فورتر بطل تلك الرواية التي أصرّت سعاد أن أقرأها بعد «مارغريت»، تذكّرت كلام القسيس وهو يغادر غرفة مارغريت المحتضرة : «إنها عاشت عيشة الخاطئة، ولكنها ستموت موتة المؤمنة».

هل ماتت سعاد ميتة غادة الكاميليا ؟!

اليوم أشعر بأنّي أشدّ حزنا عليها من عاشق مارغريت.

عندما رحلت سعاد نسيت شورّب والجرح الذي نهش وجهي وانشغلت بأخبار قضيّة «قنّاص النساء».

* * *

اليوم فقط اكتشفت أن بو لحية يستحقّ الذبح. لقد تعدّى كل الحدود، لم أكن أتصوّر أنّه يخون صديقه بهذه السهولة، لقد سخر من مشاعري وجعل منها مادّة رخيصة لشهرته المؤجّلة، لا أدري أي شيطان وسوس له لكي يخون رفيق عزلته وينشر غسيله بهذه السهولة، هو بالتأكيد لا يعلم أنّي قرأت ما كتب في تلك الجريدة الصفراء، فرغم محاولاته تغيير الحكاية والتحوير فيها فقد اكتشفت خيانته. هو لا يعلم إلى حد الآن أنني تركت الدراسة بعد أن فشلت في اجتياز امتحان الباكالوريا... لست أمّيّا كما يعتقد... تأكّدت اليوم أنّ الكتّاب أقذر خلق الله في الكون، لا يمكن أن تأتمنهم على أسرارك أبدا، يبيعونك في عمود رخيص أو في قصة قصيرة على صفحات مجلّة مفلسة. نبّهته أكثر من مرّة إلى خطر الشيطان الذي يسكنه وقلت له إنّه سيفقدني إلى الأبد لو نشر شيئا من قصّتي أو لمّح لها تلميحا، لكنّه خان وعده لي ونشر قصّتي أو قصّتها ! لا يمكن أن أثق فيه بعد الآن، تبّا لهؤلاء الكتّاب ! من يظنّوننا ؟ فئران تجارب لنزواتهم الحبرية ؟! يسرقون حيوات الناس ويبيعونها للمحبطين والمخصيين والمنحدرين من أيور الكلاب. يبنون مجدهم على رقابنا نحن

الملسوعون من هذه الحياة القحبة، يحوّلون عذاباتنا إلى مآسٍ خالدة تطاردنا ونحن في الحياة ونحن في القبور. لماذا يريد أن يعذّبها في قبرها ؟ ألا تكفي تلك الميتة الذليلة التي ماتتها ؟ هل كنت مخطئا حين حدّثته عنها ؟ بالتأكيد، لا يمكن أن تحكي أسرارك لكاتب إلاّ إذا كنت معتوها ؟

عندما قرأت قصّته «سيدة الروتند» قرّرت أن أنهي علاقتي به وإلى الأبد، هو لا يستحقّ هذا الحب الذي أهديته إياه. سيّدة الروتند كما سمّاها أشرف منه، هي لم تبع أصحابها أبدا، حتّى عشّاقها الذين تطعمهم من جنّاتها لم تخن أسرارهم أبدا و لم تتاجر بدموعهم، وكان ذلك يسيرا فكم من تلك المخلوقات الحبرية الفاشلة التي حاولت أن تنبش بمناقيرها الوسخة في مزابل ذاكرتها عن ذلك السياسي العنين أو ذلك الصحفي المخنّث، لكنّها لم تخن أبدا واحدا منهم، كانت تقول دائما إنّ المومس الحقيقية عليها أن تكون كالطبيب الحقّ الذي لا يفشي أسرار مرضاه أبدا.

يا ... كم كنت رائعة يا سعاد !! كنت أشرف امرأة عرفت. وهل يقاس الشرف فعلا بانهزامات الجسد ؟!!!

بو لحية باع ذاكرة صاحبه بثلاثين دينارا، حوّلها إلى قصّة فاشلة وقبض مقابلها ورقة نقديّة يتيمة. **«جرّت جثّتها وشهوتها على رصيف الوجوه الإسمنتية. توقفت أمام واجهة زجاجية لأحد محلاّت الكوليزي اعترضتها صورتها يتقدّمها صدر إسفنجي مستعمل ووجه إجّاصة شاحبة أسقطتها رياح عاتية وفم كالجرح**

الساكن بعد طول نزيف. هذا إذن الكوليزي وهذه المقهى المَصْيدَة هيّا أدخليها إنّها ملجأ الأمل الأخير».

كذب وهراء كلّ الذي تكتب، لم تكن سعاد بهذه البشاعة التي تصف، أنت أقبح كاتب عرفه التاريخ، الكتّاب يجمّلون الواقع وأنت تشوّهه ! سعاد كانت حسناء لكنّك بعجزك تريد أن تراها امرأة دميمة حتّى تعبّر عن هزائمك.

«العتمة مغسلة كبرى وفسحة للغفران من الخطايا والكبائر. وفي العتمة انتظرت ساعات صيدا أو وحشا ينهش بعضا من ذلك اللحم المكتظّ حول هيكلها، ويخلّص نهديها من قيودهما ويدقّ وتدا أو وتدين وينصب خيمته عند الوادي أو بين الجبلين لكن الشارع الأسود البخيل ظلّ يضنّ عليها برجل أو نصف رجل معتوه أو شيخ منهوب العينين مهدم الفكّين.»

كذب وهراء ما كتبت يا صاحب اللحية المستعارة. لم تكن سعاد أبدا كما تصف، سعاد أجمل منكم جميعا. سعاد لم ترض يوما بأيّ كان، سعاد كانت ضمائركم التي هجرتكم لأنها لم تعد تحتمل أجسادكم المتعفّنة. سعاد كانت سيدة المدينة فعلا.

* * *

اليوم غاب الشابته عن المقهى. قال بودبرة إن هندة الصحفية نقلت ليلا إلى المستشفى بعد أن وجدت أمام المبيت الجامعي مذبوحة المؤخّرة .

أضاف بودبرة «الشرطة استدعت الثابتة وربّما وجّهت له اتهاما بارتكاب الفعلة فقد وجدوا على بدلته بقع صغيرة من الدم، وسمعت أن مديرة المبيت اتّهمته بالتجسّس على غرف الطالبات، لا أستبعد أن يكون هو «الشلاّط»، لا دخل لهذا بكرهي إيّاه، كلّ القرائن تؤكّد أنّه متورّط. أتذكرون حديثه عن مؤخرات الطالبات ؟»

6
في ذكر ما لم أعد أفهمه

سأقتله، لقد تعدّى كل الحدود، لم يعد أهلا لصداقتي.

كلّ تصرّفاته تشي بأنّه يدبّر أمرا .الليلة رأيته يتسلّل من غرفته ويدخل المطبخ ليعود حاملا سكينا صغيرا، رأيته يقلّبه في يده، هل يمكن أن يكون هو ال...؟ ولماذا لا يكون هو ؟ إنّه مؤهّل لهذا وأكثر ألم يطعمنا من عطايا الجلاز عندما كنت أقاسمه البيت مع شورّب، لقد تحيّل علينا وتهرّب من دفع نصيبه في ثمن أجرة البيت واقترح علينا أن يتكفّل هو بالأكل وصدّقنا نحن بغبائنا، فكان يسرق المقرونة من المصنع ويمرّ على المقبرة ليلتقط ما تركه الزوّار. كان يستحقّ ما فعله به شورّب.

جرحه الذي يحمله في خدّه قد يدفعه للانتقام. منذ أسابيع حدّثني عن مومس كان عرفها في مقهى الروتند، قال إنّه يحبّها ولكنّها رفضت أن ينام معها ورفضت حتّى الزواج به عندما عرضه عليها، لا أدري أي إحساس ينتاب الرجل

حين ترفضه مومس ؟ لا شكّ أن إحساسا كبيرا بالنّقص يتملّكه. ربّما هذا ما جعله يفعل ذلك ! مازلت أذكر كيف صدّته تلك المرأة الدميمة في الحافلة ليلة تركنا بيتنا لنأتي إلى هنا، إحساس فظيع بالخسران وبالدونيّة حين يكون الرجل منبوذا. هل يكون هو الذي فعلها ؟ وإلاّ ماذا عساه يفعل بالسكّين ؟

إنّه ينظر إليّ طول الوقت نظرة غريبة، يهرب من أمامي كلّما عدت ليلا... ثمّ من أين يأتي بالمال بعد أن ترك العمل ؟

إنّه يقضي النهار كلّه في الخارج وأصبح يبتاع قمصانا ثمينة لا بدّ أنّها غنائم يجنيها من ضحاياه.

من التي ستهتمّ بحقيبة يدها ومؤخرتها مفتوحة ؟!!

سأقتله قبل أن يقتلني، ابن القحبة لقد انتشلته من القمامة؟!!! اتق شرّ من أحسنت...

اليوم اتصلت بالمستشفى الذي كان يرقد فيه صديقي نور صاحب الشقّة فقالت لي فتاة الاستقبال إنه لم يقم بالمستشفى أكثر من ليلتين ثم طرد منه بعد أن ضبطه الحرّاس أكثر من مرّة يتسلّل إلى غرفة العمليّات، قالت لي : صديقك غريب الأطوار لقد كان يضايق الممرضات طول الوقت. ماذا كان يريد من غرفة العمليّات ؟!! هل يكون هو ؟!! المشرط. نعم المشرط الذي كان يذبح به الجاني مؤخرات النساء أثبت

الطبّ الشرعي أنه من ذلك النوع الذي يستعمل في العمليات الجراحية ! لا هذا مستبعد جدّا، أظنّ أنّ الفتاة تكذب، في صوتها نبرة قحب واضحة، ربّما أرادت استمالتي بعبارة «غرفة العمليّات». أووه تبّا لحماقتي لست قنّاص فرص أبدا.

هل يأتي لينقذني من هذا الوغد الذي احتلّ بيته ؟

لو جاء الليلة سأدقّ بينه وبين النيقرو مسمار الحقيقة لأعرف من منهما الجاني.

أشعر أن خديجة بدأت تؤلمني ويجب أن أنام، ولكن كيف أقيها غدر القنّاص ؟

إني أسمعها تنادي... زمّلوني زمّلوني.

كم أحتاج إليك أيتها الخروبة العظيمة ؟!!

الثعبان بدأ يلتفّ حول عنقي !

* * *

كنت أجلد عميرة عندما أطلّ علي بشعره المنفوش، قالوا إنهم أخرجوه من حفرة، بدا لي مثل صرّة قمل. الغلام البض يقلّب رأسه أمام الضوء بمشرطه الطبّي كمن يقلّب خ... أشعر كأنّه يقلّب خديجتي بذلك الشيء. شيئي الأسود الذي كان يرعب لطفي زوزو انسحب إلى مرقده مثل رأس السلحفاة. أشعر أنّي أقترب من الأرض. كلّ شيء فيّ ينسحب، كلّي يتساقط، يتصاغر... يتصاغر... يتصاغر...

آه كم أحتاجك أيّها الحرز لتعطيني بعض الأمان !!

أنا الآن مثل بعوضة. مثل حشرة بلا وجه تلحس مؤخرتها في غفلة من روّاد معرض الكتاب. ولكنّي مع ذلك أشعر بتفاؤل غريب ربّما لأنّني تخلّصت من الجرح إلى الأبد.

7

في ذكر شهلاء الحمراء

حدّثني عبد الرحمان أنّه أبعد إلى الشمال حيث الفقر بلا حساب والجوع يركب البطون والعيون، وحال نزوله بالمكان أهداه السيّد زوجة عليلة وحمارا أدبر وعنزا بضرع واحد. وذكر العلامة أنّه كان يحتاج إلى تلك التجربة التي اعتبرها مغامرة قد تعلّمه التغلّب على شهوات النّفس وخطاياها، غير أنّه ملّ رتابة ذلك العيش فأحدث لنفسه فجوات في بنود العقاب واجترح لنفسه متعا في ذلك الخراب إلى أن كانت تلك الليلة التي أخذت حصاد الفكرة.

احتبست حمرة في عيني عبد الرحمان وهو يروي :

كانت ليلة القدر ماطرة والريح تقتلع الأفئدة والرعب يجتثّ أحلام الأطفال والبرق يذبح العيون السّاهرة.

كان الوحل يغرق خطواتي، لكن صورة شهلاء الحمراء الملتهبة في ذهني تجعلني أقهر ليلة الرعود والرياح والأوحال – شهلاء الحمراء أرملة القريشي تقول إنّ ثعبانا لدغه خارج القرية وهي في زيارة إلى أهلها فدفنته في الطريق وعادت –

فتحت منذ مدّة دكّانا في قمّة الجبل لبيع التبغ واللذائذ.

ما من أحد دخل حانوتها ورآها حتّى ضربه حبّها فجندله.

ابتسامتها
نابها الذهبي
خلخالها الفضّي
خلالها المنتصب على الصدر يحرس حلمة النهد الأبيّ
حزامها الملفوف حول خصرها السّاحر
مقياسها الذي ينهش شهد المعصمين
ملاءتها البنّية العطرة !

يقال والله أعلم أنها نسخة من أمّها مريم الحمراء التي زارها العلامة الشيخ النفزاوي ليضع باب «في المحمود من النساء» من كتابه الشهير فيصفها قائلا : «**هي المرأة كاملة القد، العريضة اللحم، كحيلة الشعر، وبياض ناصع، مفخمة الوجه، أسيلة الخد، ظريفة الأنف، ضيقة الفم، محمرّة الشفاه واللسان، طيبة رائحة الفم، طويلة الرقبة، غليظة العنق، عريضة الصدر، واقفة النهود، مليء صدرها لحما، معقّدة البطن، وسرّتها واسعة، وعريضة العانة، كبيرة الفرج، ممتلئة لحما من العانة إلى الاليتين، ضيقة الفرج ليس فيه ندوة، رطب سخون...**»

في تلك الليلة كنت قد غادرت حانوت شهلاء مع السّاهرين، تقاسمنا عندها الأحجيات واستمعنا إلى حمّاد الرّاديو وهو يزفّ لنا أخبار المقاومة هناك، صفّقنا، تصايحنا، رأينا بأمّات عيوننا تآكل تمثال الحريّة الغاشم... عندما أجهزنا

على حشايا جيوبنا وعقولنا تركنا المكان عائدين إلى زوجات جائعات تفوح منهن روائح «البعرور»... وجدت زوجتي العاقر مثل خرقة في الركن تلوك أنينها وما إن شعرت بمجيئي حتى قامت تسعل سعالها الشهير... عاودتها النزلة... تركتها وخرجت هاربا ببقيّة نشوة «الزطلة» التي شربتها عند شهلاء.

في ذلك الجو الماطر خطر لي خاطر : لماذا لا أعود إلى شهلاء الحمراء، كل الساهرين غادروها عائدين إلى جحورهم، هي بلا شكّ وحدها ؟

لماذا لا ... ؟

اشتعلت الفكرة في ذهني قرارا.

هرولت.

تطاير الوحل تحت أقدامي.

صعدت الجبل الزلوق... مدرّعة كنت... آه لو رأيتني يا فتى !

ضوء الحانوت يئنّ.

انطفأ المصباح...

وقفت أمام الباب. أقبلت كلبة شهلاء تتمسّح بي. ألفتني الكلبة، كنت أكرمها دائما... كانت دافئة مثل صاحبتها، حنونة. كانت تطلق أنينا لم أعتده... تركتني ورحلت في الظلام الممطر.

عادت إلي صورة شهلاء... كم كنت أحسد ذلك القريشي، كنت أراه في منامي يركبها فتركبني حمّى الأرض والسّماء فأركب زوجتي وأغمد فيها نصلي وأحلم بالحمراء،

لكن سعالها تحتي يجعلني أهفت وأنزل وأسحب عدّتي فلا الجواد جواد ولا السلاح بقي سلاحا.

كم كنت أحسد القريشي على فرسه !

كانت بغلتي نحيفة ضربها السلّ فتكوّرت كومة من العظام تئنّ ساعة وتسعل ساعات، تحيط فراشها بشراب الكالاتوس وحقن «الفيكس» ومراهم للبرد من الصين.

في تلك الليلة، وأمام بيت الحمراء، كنت أقف قبالة الضوء الخافت في نشوة صوفية عارمة وإحساس فارس مقدم على حرب لا يرى فيها غير نصره.

لم تبق إلا لحظات وأركب فرسك يا قريشي.

لا تلمني فالفرس للفارس وأنا فارس هذه الليلة الماطرة. المطر فأل حسن.

سيعمّ الخير هامتي العطشى منذ ثبّتوني بالإسمنت في ذلك الشارع المهجور.

* * *

يقال، والله أعلم، إن الثعبان بريء من دم القريشي براءة الذئب من دم يوسف، وإن الرجل مات من فرط معاودة النكاح. ففي طريقه إلى أهل زوجته شعر برغبة في مجامعة شهلاء وكانت هي أيضا قد هيّأها ظهر الدّابة لذلك، فركبها ثلاثا ثمّ جعلها على صدره ثلاثا دون أن يستريح وبينما هما في تصعيد وإنزال إذ بذئب يطلق عواء قريبا، انخلع قلب القريشي، قفز على شماله

يريد النهوض فانفلج وخرّ على إسته. وعندما رأته شهلاء على تلك الحال وعواء الذئاب يتكاثر حولها تركته وفرّت إلى بيت أهلها الذي كان قريبا وعندما عادت معهم إلى المكان كانت جثّة القريشي قد بقرتها الذئاب وفتكت بأعضائها ومن خلف السّدرة القريبة أطلّ قطّ برّي يلوك ذكر الرّجل الفحل. حفر الرجال حفرة للقتيل وأسقطوه فيها بملابسه ونعله وعادوا يروون على النّاس قصّة الثعبان.

* * *

دفعت باب الحانوت المفتوح
تقدّمت نحو المقصورة
أزحت الستارة.
كومة من اللحم المتحرّك
أياد وأرجل متشابكة.
كثيرة كانت الأيدي والأرجل .
أنين... شهيق... شعر فاحم طويل وآخر كالوبر الأحمر
في الركن درّاجة ناريّة حمراء، على مقودها علّقت خوذة سوداء.

خرجت إلى الوحل، كانت بغلتي الشهباء التي تركتها في دمشق تلوك رزمة الكراريس التي كتبتها في وصف بلاد المغرب لتيمور الأعرج. التفتّ يميناً، لاح لي القريشي واقفا أمام الباب يحرس سيّارة الـjeep الخضراء ويتسلّى ببرد مشرط مدندنا بأغنية

داعرة، ارتبك ساعة رآني ثمّ تمتم كالآمر ملوّحا بمشرطة اللامع: انتهت مدّة العقوبة ستعود غدا إلى العاصمة.

* * *

أوردت وكالات الأنباء الأجنبية أن مراسليها سجلوا حملة من الاعتداءات استهدفت مؤخرات النساء في كلّ من بانكوك ونيويورك ودبي والقاهرة وطنجة ونيودلهي وجوهانز بورغ وبقاع أخرى من العالم. وتؤكّد الأنباء أن الاعتداءات جرت بالمشرط نفسه الذي تحدثت عنه التحقيقات في تونس لذلك سارعت الجهات المعنية للاستفادة من التجربة التونسية في مكافحة أعداء خديجة، خاصة أن الإصابات بالمدن التونسية تراجعت الى معدّل مائة إصابة في الشهر فقط.

* * *

نسناس أصفر يشبه سي لطفي في المرآة يحك بيده الوحيدة ما تبقّى من خديجة.

نسناس أخضر بشارب سلفادور دالي، خلفه لوحة حمراء وسوداء، يلوّح بكفّه الوحيدة لقنّاص صائم.

نسناس(ة)، لعلّها حوّاء، بثدي واحد وشطر خديجة تراود ابليسا أحمق في غفلة من آدم المنشغل بحلاقة عانته في ركن قصي من المرآة.

نسناس أحمر يشبه عبد الرحمان، يشبهني ويشبهك يحمل في يده الوحيدة مشرطا طبّيا ويتقدّم في حذر نحو روّاد المعرض.

العدد الأول /سلسلة جديدة

اعتذار

نعتذر للقرّاء الكرام عن الخلل الذي حدث في نشر الدفترين فقد تداخلت مادتهما وسقط منها الكثير ولم ينتبه إلى ذلك مصححو الجريدة ولأنّهم أضاعوا الدفترين الأصليين واستحال الإصلاح، وقع الاستغناء عنهم جميعا وتحويلهم إلى التحقيق واستبدالهم بمصححين جدد أكثر نشاطا وانضباطا. كما نعلم القرّاء أن ملف قضية القناص أقفل نهائيا ولم يعد يعني جريدتكم «الحقائق» - في حلتها الجديدة - لا من قريب ولا من بعيد.